د . قسطنطين زريق

معنى النكبة

المحتويات

توطئة وتقدمة

لست أدعي أني، في هذه الدراسة المقتضبة لمحنة العرب في فلسطين، قد " اخترعت البارود " (أو، بلغة هذا العصر: "القنبلة الذرية")، أو أني اكتشفت الدواء الشافي لعلاّتنا جميعاً . وإنما هي محاولة لتصفية تفكيري، في هذه الأزمة الخانقة التي يترتب فيها على كل فرد من أفراد الأمة قسطه من الواجب ونصيبه من التبعة. ولا شك في أن أول شرط لحسن القيام بهذا الواجب صحة الفكر واستواء الخطة.

فإذا كان من هذه المحاولة، لبني وطني وللفئات القومية المناضلة منهم خاصة، فائدة في إزالة بعض البلبلة السائدة في جوّنا الحاضر، فهذا غاية ما أرجو. وإلا فليكن نصيبها نصيب النافل الكثير مما تصدره مطابعنا اليوم. وعساي، على كل حال، ألا أكون قد أخطأت المرمى فأضررت من حيث أردت النفع والفائدة.

بهذا الشعور أتقدم بهذه الرسالة إلى كل قومي متحرر من بني وطني عربون إيمان ومشاركة وولاء .

٥ آب ١٩٤٨

قسطنطين زريق

ليست هزيمة العرب في فلسطين بالنكسة البسيطة، أو بالشر الهين العابر. وإنما هي نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومحنة من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم الطويل ، على ما فيه من محن ومآس .

سبع دول عربية تعلن الحرب على الصهيونية في فلسطين، فتقف أمامها عاجزة ثم تنكص على اعقابها. خطب نارية يلقيها ممثلو العرب في أعلى الهيئات الدولية منذرة بما ستفعله الدول والشعوب العربية إن صدر هذا القرار أو ذاك. وتصريحات تقذف كالقنابل من أفواه الرجال الرسميين لدى اجتماعات الجامعة العربية. ثم يجدّ الجدّ ، فإذا النار خافتة باهتة وإذا الصلب والحديد صدىء ملتو سريع العطب والتفتت، وإذا القنابل جوفاء فارغة لا تحدث أذى ولا تصيب مقتلاً.

سبع دول تتصدى لإبطال التقسيم، وقمع الصهيونية، فإذا بها تخرج من هذه المعركة وقد خسرت قسماً لا يستهان به من أرض فلسطين، بل من الجزء "المعطى" للعرب في التقسيم، وإذا بها تقهر قهراً على قبول هدنة لا مصلحة لها فيها ولا غناء.

قضية لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب إلى الحق: بلد يغتصب من أهله ليجعل وطناً لشراذم من الخلق ينزلونه من شتى أقطار العالم ويقيمون فيه دولة رغم أنوف أصحابه والملايين من اخوانهم في الأقطار المجاورة. ومع ما في يد العرب من حق صراح، وما في بلادهم من إمكانيات، وما للدول فيها من مصالح يساوم عليها- مع هذا كله، يقفون فرادى في الميدان الدولي، تعاديهم الدول العظمى ويناوئهم الرأي العام العالمي، وليس لهم حليف قوي قد أعدوه ليسندهم في مثل هذا الظرف وينصرهم في صراعهم.

أربعمائة ألف عربي أو أكثر يشردون من بيوتهم، وتنتزع منهم أموالهم وأملاكهم، ويهيمون على وجوههم في ما تبقى من فلسطين، وفي البلدان العربية الأخرى، لا يدرون ما يخبئه لهم القدر ، أو أي مورد من موارد العيش يرتادون، ويتساءلون عما إذا كان سيحكم عليهم بالعودة إلى بلادهم ليعيشوا تحت ظل الصهيونيين، ويتحملوا ما يفرضونه عليهم من أذى وإهانة وإذابة، وإفناء.

بل شر من هذا! فقد تحول التشتت والتشرد من اليهود إلى العرب. فبعد أن كان العرب لا يعترفون للمشردين اليهود بحق، وبعد أن كانت الهيئات اليهودية تسعى لدى المنظمات الدولية لحل معضلتهم باقامة الوطن الصهيوني في فلسطين، إذا بالدول العربية الآن تستعطف هذه المنظمات لإعادة مشردي العرب إلى بلادهم الواقعة تحت الحكم الصهيوني ، وتجعل ذلك شرطاً لتحويل " وقف القتال " إلى "هدنة".

وعلى الإجمال: لم يكن الوطن الصهيوني في فلسطين أقرب يوماً إلى التحقيق منه في هذه الأيام. وبالعكس، لم يصب الكيان العربي بعد بما أصيب به في هذه المعركة من تصدع وانهيار.

وفوق الانهيار المادي انهيار معنوي يتمثل في شك العرب بحكوماتهم، واتهاماتهم لقادتهم وزعمائهم ، بل شك الكثيرين منهم في انفسهم وفي قابليتهم كأمة، وتسرب اليأس إلى صدورهم ، وتهربهم من مجابهة الخطر، وتضاؤلهم أمام عظم المصيبة. ولعمري ! ان هذا الانتكاس المعنوي الروحي لأهم من الخسارة المادية مهما عظمت، لأن الشعب إذا تفتت عزمه وخسر ثقته بنفسه، فقد أضاع خير ما يملك وعجز عن أن ينهض بعد كبوة، أو أن ينفض عن نفسه غبار الذل والخذلان.

هي ذي بعض وجوه النكبة التي لحقت بالعرب في هذه المعركة من حرب فلسطين. وكفى بها، وبأمثالها مما يدور على الألسن ويختلج في القلوب، ومما يشاهده ويسمع به كل

منا في هذه الأيام العصيبة، دليلاً على خطورة المحنة، وشدة المأساة.

***

على أن من العدل والانصاف أن نسرع فنقول إن أسباب هذه الكارثة لا تعود كلها إلى العرب أنفسهم. فالعدو المتصدي لهم قوي الشكيمة، غزير الموارد، بعيد الأثر، قضى السنين- بل الأجيال- وهو يتأهب لهذا الصراع، وقد بث نفوذه وسلطته في مشارق الأرض ومغاربها ، واستولى على كثير من مصادر القوى في الدول العظمى، حتى دانت هذه له أو اضطرت إلى ممالأته. وهو إذا حشد قواه على إحدى هذه الدول أتعبها واستأثر بكثير من مصالحها، كما أظهر التاريخ البعيد والقريب فعلاً في كل من دول الأرض العظمى. فكيف به، وقد نازل أمة لا تزال في بدء نهضتها، وفي المرحلة الأولى- من تكونها الاجتماعي والسياسي- أمة ظلت قروناً مقهورة على نفسها بحكم استبدادي كاد يجردها عن ذاتها، وما لبثت منذ أن خلعت عن نفسها هذا الحكم الثقيل، تسعى لانتزاع حريتها واستقلالها من أقوى أمم الأرض وأبعدها نفوذاً ؟؟ ليست الصهيونية تلك الجوالي والمستعمرات المنتثرة في فلسطين فحسب، وإنما هي الشبكة العالمية، المجهزة علماً ومالاً ، المسيطرة في بلاد العالم النافذة، المسخرة كل قواها لتحقيق هدفها في بناء الوطن لأبنائها في فلسطين .

فمن الواجب أن نقر بهذه القوة الهائلة التي يمتلكها العدو، وأن نحسب لها حسابها عندما ننظر في معضلتنا الحاضرة ونسعى لمعالجتها. فلقد كان من شر ما بلينا به في السنوات الأخيرة أننا، بينما كنا نطنب في تبيان هذه القوة وشرورها للغير، كنا نحن بالفعل مستهترين بها ذاهلين عن ازديادها وتكتلها على الأيام. ثم عندما نشبت المعركة أخذت دعايتنا الداخلية تلهج بانتصارات لنا خيالية، وتخدر الجمهور العربي بسهولة صراعنا الحربي ومقدرتنا على التفوق والانتصار، إلى أن وقعت النكبة ووقع معها رد الفعل المرير . و لعل ان يكون من حسنات هذه الهزة العنيفة أن تردنا إلى الواقع، وتنبهنا إلى

حقيقة الحال، فتساعدنا على أن نقدر الأمر قدره ونتخذ له عدته.

من الحق والواجب أن نقر بقوة العدو الهائلة، فلا نحمل أنفسنا من اللوم فوق ما تستحق . ولكن من الحق والواجب كذلك أن نقر بأخطائنا ونتبين مصادر الضعف في كياننا ، وأن نعرف مدى مسؤوليتنا في هذه الكارثة التي أصابتنا. ومن الشر كل الشر أن نتهرب من هذه المسؤولية، ونعمي أبصارنا عن مناحي تقصيرنا، فننحي باللائمة على هذا او ذاك من سوانا دون أن نرى الضعف والعيب والفساد في نفوسنا. فما أكثر ما نسمع بيننا اليوم من شتم لليهود، ومن تنديد بالانكليز والأميركان والروس، وبمجلس الأمن ووسيط الأمم المتحدة، وبكل من يقف مناوئاً لنا في هذا الصراع. لا شك في أن هؤلاء عادونا ويعادوننا، ومن الضروري أن نحذرهم وأن نذكر لكل موقفه ونحاسبه عليه كلما سنحت لنا الفرصة واكتملت عندنا القوة. لاشك في أنه يجب أن نحمّل كلاً منهم مسؤوليته أمام التاريخ، ونجابهه بها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. لا شك في أنه يجب أن نحفظ هذا كله في قلوبنا ونلقنه أبناءنا وأحفادنا، ونعتبره في رسم سياستنا وتدبير أمورنا . ولكن يجب أن لا ننسى، في الوقت نفسه، أن السياسة لا تزال قائمة على القوة والمصلحة ، وان كلاً من هذه الدول تتبع مصلحتها أولاً ، وأنه لا يكفينا أن نندد بها ونحملها مسؤوليتها، إذا نحن لم نندد أولاً بمواطن الضعف فينا ونحمل أنفسنا ما يترتب عليها من تبعة وما يصيبها من نصيب في نكبتنا الحاضرة. وإذا كان التهرب من الواقع، وإلقاء العبء على الغير، شراً خطراً في الأيام العادية، فهو في أيام المحن والشدائد أصل العلة ومصدر الفساد. وليس أفضل من هذه الأيام فرصة لمحاسبة النفس، ولاستكشاف مواضع الضعف والعمل لمداواتها، أو البدء بذلك على الأقل.

ومن العدل والانصاف كذلك، عند نظرنا في هذه النكبة، وتقديرنا لمداها ونتائجها أن نعلم أنها معركة في حرب طويلة الأمد، وأننا إذا غلبنا فيها، فليس معنى ذلك أننا خسرنا الحرب كلها، او هزمنا هزيمة نهائية لا قيام لنا بعدها.

أجل ! إن هذه المعركة فاصلة من وجوه عدة. فعليها يتوقف تأسيس الدولة الصهيونية أو بطلانها. وإذا خسرنا المعركة بكاملها، وتأسست هذه الدولة ، فمما لا شك فيه أن اليهود في العالم أجمع سيحشدون قواهم كلها للاحتفاظ بها وتقويتها وتوسيعها كما حشدوها لإنشائها. ولكن التاريخ مليء بالمفاجآت، والكيان المفروض بالقوة، الذي لا يقوم على سنن الطبيعة والاجتماع، لا يمكنه أن يبقى طويلاً إذا جابهته قوى طبيعية حية متمشية مع مجرى التاريخ .

ولذا، فلا مبرر لليأس يستولي على نفوسنا، ويشل فعاليتنا، وينزع منا ثقتنا بأنفسنا وبأمتنا، كما فعل بالكثيرين منا، فأحدث ذلك التخاذل المعنوي الروحي الذي قلت أنه أشد خطراً وأعظم هولاً من الخسارة المادية والهزيمة الحربية. بل علينا أن نعد للغد عدته ، وأن نأخذ للمعركة القادمة أهبتها، وأن نتعلم من أعدائنا النظر البعيد والترتيب المحكم والخطة المدبرة، والسعي الحثيث سنوات، بل أجيالاً، لتحقيق المطلوب وبلوغ الغاية. فما أكثر ما نكب اليهود في تاريخهم، بل ما أكثر ما تعرض كيانهم في فلسطين في السنوات الأخيرة للانهيار والزوال. ولكنهم ظلوا صابرين على المكاره، متحملين الشدائد ، واضعين أعينهم على الهدف المنصوب، إلى أن بلغوا ما بلغوه اليوم من قوة وبأس .

لا ! لست أعني بالدعوة إلى العمل البعيد المدى، وإلى النظر إلى الحرب بكاملها ، بدلاً من الاقتصار على المعركة الحاضرة- لست أعني بذلك مجرد الانتظار للحوادث تأخذ مجراها، والاتكال على الظروف تتناسب وتتوافق. فما الاتكالية المتفائلة بالنجاح المحتم، استناداً إلى الظروف والمناسبات، خيراً من التشاؤم المطبق واليأس الشال الذي تثيره الهزيمة الآنية. ففي كليهما تهرّب من الواقع، وتخلص واع أو غير واع من المسؤولية المترتبة والواجب المفروض.

وإنما أعني بالنظر والعمل البعيدين، الاهتمام والتدبير على نطاق واسع ولمدى طويل. أعني مجابهة الواقع كما هو، وتعيين الغرض المطلوب، ورسم الخطة المحكمة لبلوغه، وتحقيق ذلك يوماً بعد يوم، دون يأس أو أي نوع

من أنواع التهرب . هذه هي الطريق التي رسمها التاريخ للظفر في الحروب، ولبناء الدول وتكوين الأمم .

***

عسى أن أكون في ما ذكرت آنفاً قد أصبت الحق في وصف نكبتنا الحاضرة في فلسطين، فأبنت عن خطورتها وفداحتها، وشدتها علينا في حاضرنا ومستقبلنا . وعساي أكون كذلك قد صورتها في واقعها، ورسمت الاتجاه الذي يجب أن نتخذه منها ، والنظر الذي يقتضي أن ننظر به إليها. فهذه هي الخطوة الأولى الضرورية لتحليل أية معضلة ، ولبحث سبل معالجتها.

واجب المفكر

من شر ما تحدثه بعض المحن والشدائد في الأمم توزع الآراء وتفرق النزعات في الأفراد والجماعات . فترى هؤلاء من شدة ما يصيبهم ذاهلين ضائعين: يؤخذون حيناً بهذا الرأي وحيناً بذاك، ويتبعون أي دليل يدّعي القيادة، إلى طريق الخلاص.

وشبيه بهذا ما حل بجمهور الشعب العربي، بل بقادة رأيه ومثقفيه، اثر النكبة التي حلّت بالعرب في فلسطين. فالواقع ان مئات الألوف من أهل هذا البلد المنكوب لم يشردوا من بيوتهم ويهيموا على وجوههم فحسب، بل ان أفكارهم وآراءهم، وأفكار أبناء وطنهم في شتى منازلهم ، قد شردت أيضاً وهامت، فانتشرت فيهم بلبلة في الرأي، أقل ما يقال فيها انها نذير بشر أعظم إذا لم تبدد ويحل محلها تفكير صاف وعزم موحد.

من مظاهر هذه البلبلة هذه الاتهامات المختلفة تكال حيناً لهذا وحيناً لذاك ، وتصب على هذه الجهة أو تلك. وترى الناس من أثرها شيعاً ينحازون إلى دولة من الدول العربية على أخرى، ويهاجمون هذا أو ذاك من زعماء العرب وقادتهم، فيشغلون بذلك عن التفكير في العدو المشترك والمصاب الملم.

كذلك نختلف في تعليل النكبة وتحليل أسبابها. فمنا من يرجعها إلى نقص في الدعاية لقضيتنا الحق، وآخرون لقلة استعدادنا بالعدد والأسلحة، وغيرهم إلى اختلاف النظر والعمل بين دولنا العربية، أو إلى غير هذه من مواطن الضعف فينا.

وتبرز هذه البلبلة، بصفة خاصة، في صفوف الشباب الواعي، المتحفز للعمل، المستعد لبذل ذاته في سبيل وطنه والمساهمة في حمل أعباء أمته. ينظر هذا الشباب إلى نفسه وإلى ماضيه : يتفحص ما قام به من أعمال، وما حاول أن ينشىء من أحزاب، وما بذل من جهود في سبيل القضية العامة، فيجد أن هذه كلها لم تكن وافية بالغرض المطلوب ، فلا هي استطاعت أن ترد الكارثة، ولا أرضت نوازع هذا الشباب أو أشبعت

طموحه الملح لخدمة أمته وتحريرها. ويتساءل هذا الشباب عما يجب أن يفعل تداركاً لشرور الحاضر، ودفعاً لأخطار المستقبل، فلا يجد أمامه سبيلاً واضحاً أو اسلوباً معيناً . فيتخبط في شتى الآراء والاتجاهات، ويتطلع حيناً إلى هنا، وحيناً إلى هناك ، ويدور فكره في الأكثر على نفسه، فلا يؤدي إلى نتيجة ايجابية أو أثر محسوس.

هذا النفر من الشباب، الواعي، المتلمس طريق الواجب، المستعد للعمل والتضحية ، المتحرق لخدمة الوطن هو ذخر هذه الأمة وعدتها لمستقبلها. هذا الشباب هو اليوم مضطرب البال، موزع الفكر، مشتت الإرادة. اجلس في أي من مجالسه شئت ، تر هذا الاضطراب قائماً، وتلمس البلبلة الشديدة الأليمة في تعليل الوضع الحاضر، وفي تحري سبل الخلاص.

ولا جدال في أن هذه البلبلة ليست شراً كلها، فإن فيها من التساؤل والمحاسبة والتألم النفسي ما قد يشق طرقاً جديدة للمستقبل. ذلك أن التساؤل هو الخطوة الأولى للتقدم الفكري، كما أن الألم قد يبعث قوى النفس ويحفزها لبذل أوفر وجهد أشد .

غير أن هذا التساؤل والتألم قد يضيع ويذهب سدى، بل قد ينقلب شراً وسوءاً - قد يتحول التساؤل إلى حيرة وضياع، والالم إلى يأس قتال أو سلبية هدامة - إذا لم يتصد لهما الفكر النير، فيفصل بين الصواب والخطأ، بين العناصر الايجابية والسلبية ، بين عوامل القوة والأمل وعوامل الضعف والخيبة، فينصر الأولى على الثانية، ويوجهها التوجيه الحسن إلى ما يحفظ الأمة ويبقي ثقتها بنفسها.

هي ذي اذن وظيفة الفكر الواعي في هذه النازلة، بل في كل شدة أو أزمة . هي أن يأخذ على عاتقه قيادة الرأي وسط الاضطراب والحيرة، هي أن يلقى ضوءاً على الوضع المتخبط ، فيظهره على حقيقته، ويميز بين مختلف عناصره ووجوهه . وظيفته أن يفرق بين الأسباب والنتائج، فلا يقدم الثانية على الأولى، وأن يفصل بين الأسباب البعيدة والقريبة وبين الأصول والفروع، فيعطي لكل شيء أهميته، ويقدره قدره في العملية المعقدة المتشابكة.

فإذا فضل هذا الفصل وميز هذا التمييز عمد إلى وصف سبل المعالجة ، فتناول الأسباب القريبة بمعالجة قريبة، وتوجه إلى الأسباب البعيدة بعمل طويل النفس واسع المدى، ولم يهتم بالمظاهر اهتمامه بالعوامل، ولم يبذل للفروع ما يجب أن يبذله للأصول.

ولعل قادة العمل وحاملي المسؤوليات الكبرى لا يرتاحون كثيراً إلى مثل هذه المهمة، يأخذها المفكر على عاتقه. وهم في ذلك على حق إذا كان الفكر مجرداً لا تتصل جذوره بالواقع، وإذا كان المفكر غير شاعر بالمسؤولية، أو وازنها بالميزان الصحيح العادل . حينئذ يحق لهم أن يقولوا: "الحرب بالمنظار هين "، وان ينظروا إلى المفكر شزراً ، ويستخفوا به . حينئذ يكون الفكر خليقاً بذلك، بل خليقاً بأن يخفق من ذاته مهما كانت نظرة رجال العمل إليه، وتصرفهم نحوه.

ان هذا الشعور بالمسؤولية المترتبة على كل فرد من أفراد الأمة، وعلى مفكريها خاصة ، في هذا الظرف

العصيب، هو بالذات الدافع إلى وضع هذه الرسالة، وهو ما يشفع - فيما أرجو- بما تتضمن من خطأ، أو تنطوي عليه من ضعف. وما دامت ناشئة عن هذا الشعور ، ومتسلحة بهذه العدة، فلن تخشى مذمة أو ملاماً في تبيان الخطأ وتحديد التبعة ، وفي الكشف عن جذور الكارثة الحاضرة، والدعوة بصراحة وقوة إلى اقتلاعها . فلعل ان يكون منها بعض الفائدة في تبيان طريق الخلاص ودفع الفكر والنفس إليها .

المعالجة القريبة

قلنا إن نكبة العرب في فلسطين- كأمثالها من الأحداث فى التاريخ- لها أسباب قريبة وأخرى بعيدة . وعلى الفكر أن يميز بين هذين النوعين من الاسباب، وأن يبين نوع المعالجة التي تناسب كلا منهما وتكون كفيلة باستئصاله والتغلب عليه.

فلننظر إذن أولاً في المعالجة القريبة، لنرى ما يجب عمله لتدارك الخطر المحيق، وللوقوف في وجهه ومنع طغيانه، إذا لم يكن من الممكن الآن القضاء عليه قضاء تاماً نهائياً .

على أنه لا بد من أن نلاحظ أولاً أنه لا يمكن الفصل فصلاً تاماً بين الأسباب القريبة والبعيدة ، فما الأولى في أحيان كثيرة سوى مظاهر للثانية وثمار ناشئة عن بذورها. وليست الحياة البشرية من البساطة بحيث يمكن تقسيمها وتنظيمها وإقامة الحدود بين أجزائها بصورة اصطناعية. وهكذا لن تكون سبيل المعالجة الآنية مستقلة عن سبيل المعالجة الاساسية البعيدة ، بل هي مرتبطة بها ومتفرعة عنها. وعلى المفكر أو المصلح أن يتناول الواجبين معاً ، وينظر إليهما كوحدة، ولا يغفل عن النسبة، بينهما، بل يتصدى لكل منهما وعينه متجهة إلى الآخر بحكمة ودراية، وحسن تدبير وتنظيم.

وليس بالامكان، في هذه المحاولة الدراسية، التعرض لجزئيات المعالجة- القريبة والبعيدة - ولتفاصيلها العديدة المتفرعة، خصوصاً إذا كانت تلك الجزئيات تنتظم

في كليات ، وهذه التفاصيل والفروع ترتد إلى أصول تجمعها وتوحد بينها.

فما هي الأصول التي تستمد منها المعالجة القريبة، والأركان التي تقوم عليها؟

***

أركان هذه المعالجة، بل هذا الجهاد، في نظري، خمسة: أولها تقوية الاحساس بالخطر ، وشحذ إرادة الكفاح. فهنا الخطوة الأولى، والعامل الأصلي. ولعل البعض يعتبر هذا القول خطأ أو جزافاً . كيف لا ! وأعمدة صحفنا طافحة بالمقالات المفصلة للخطرالصهيوني، والمحذرة منه، والخطب في هذا الموضوع تترى في كل آن ومكان ، وذكر الصهيونية وشرها يكاد يكون على كل شفة ولسان .

غير أن الواقع انه بالرغم من هذه الأقوال والأعمال لا يزال الجمهور العربي ، بل فريق كبير من مثقفيه، بعيدين عن الاحساس الكافى بالخطر الأعظم الذي تمثله الصهيونية على كل بلد من بلدان العالم العربي. إذ لم تبين لهم بصورة مادية محسوسة وجوه هذا الخطر على موارد كسبهم، بل على كيانهم بالذات. ومع ما شاهدوا من الألوف المشردة ، وما سمعوا عنه من أخبار التهديم والقتل والتمثيل وسواها من الفظائع، فإنهم لم يدركوا بعد حقيقة الصهيونية، وقوتها العالمية، وغايتها في الفتح والافناء، وقساوتها العارية في تحقيق هذه الغاية. لم يدركوا شدة النزعة الكامنة في صدور القوم، العاملة المتزايدة خلال العصور، فى سبيل تأسيس دولة لهم في فلسطين، ثم ما تشرّبه فتيانهم وشبابهم في السنوات الأخيرة من النازية وسواها من حب السيطرة والفتح، وما يجدون في البلاد العربية، الغنية الموارد، المحتلة مركزاً وسطاً في العالم، من مجال لجهدهم القومي التوسعي هذا.

ولكن ما لنا ولجمهور الشعب. ألسنا نرى بين بعض حكامنا وأركان دولنا العربية من يضع هذه القضية أو تلك من قضايا بلاده على مستوى القضية الصهيونية أو قبلها فيسمح لنفسه بأن ينحرف عن معالجة الخطر الأكبر

الشامل إلى الاهتمام بالخطر الأصغر الزائل ؟ فلا السودنة، ولا معاهدة بورتسموث، ولا قضية النقد السوري اللبناني ، ولا أي من المشاكل المشابهة، توازي الصهيونية خطراً وبعد أثر. إذ إن ما تمثله من استعمار وعبودية شر زائل يوماً ، مهما بعدت أيامه وطالت جذوره. أما الاستعمار الصهيوني ، فغايته إبدال وطن بوطن، وافناء قوم ليحل محله قوم آخر: هو الاستعمار العاري المجرد بأوضح ألوانه وأفظع أشكاله. وعلى هذا، فلا يجوز أن يشغلنا عنه شاغل ، حتى تلك المشاكل القومية التي أقضت مضاجع حكوماتنا، وما تزال. هذا إذا صرفنا النظر عن السياسات التافهة، والعنعنات الضارة، والمنافسات الحزبية، والشهوات المحلية ، التي كان يجب أن تلم أذيالها وتستحي، وتختفي من الميدان في هذا الظرف العصيب ، وتجاه الخطر الجاثم .

ونحن كثيراً ما نسمع ونقرأ في الصحف عن حاجتنا إلى الدعاية لقضيتنا في البلدان الأجنبية. ومع ما في هذا القول من صحة، فإن الناظر المحقق ليرى أنه بجانب هذه الدعاية الخارجية ، يجب أن ننظم دعاية داخلية في عقر دارنا، وان حاجتنا إلى هذه ليست أقل من حاجتنا إلى تلك، بل قد تكون أقوى منها وأشد.

المهم في هذا التنبيه الداخلي أن يستقر في الذهن العربي وفي النفس العربية أن الخطر الصهيوني هو الخطر الأعظم على الكيان العربي. الأخطار الأخرى تتوجه إلى بعض أجزاء هذا الكيان ونواحيه، أو تشمل العالم العربي وسواه من أجزاء المعمور. أما هذا الخطر فهو موجه إلى الكيان العربي بذاته، بمجموعه، بأسس وجوده. فكل ما سواه هين بالنسبة إليه ، ويمكن أن يتسامح به، أو يؤجل حله ، في سبيل دفع هذا الخطر الأشد والأشمل و صيانة النفس منه.

يجب أن يوضع أمام الشعب العربي، مسنوداً بالأرقام والوقائع . هذا ما يجب أن يستقر في ذهن حكامنا وعامتنا. هذا ما يجب أن نلخصه في فكر قاطعة وعبارات محكمة، ونلقنه أبناءنا وطلبة مدارسنا صباح مساء. هذا ما يجب أن تنصرف إليه أولاً دوائر الدعاية في حكوماتنا،

مستخدمة الصحف والراديو وكل سبيل آخر من سبل النشر، لتنمي في نفوس العرب أجمعين هذا الاحساس بالخطر، بالخطر الأعظم، بالخطر الفريد ، كي يكون كل فكر من أفكارنا وكل عمل من أعمالنا متأثراً بهذا الشعور وصادراً عنه . فإذا قوي هذا الاحساس قويت معه إرادة الكفاح، هذه الإرادة التي لا تزال، مع الأسف ضعيفة فينا. فكفاحنا في هذه المعركة كان، على العموم، كفاح متصنع متمهل ، لا كفاح مستميت ، كأن الجهاد كان فرض كفاية لا فرض عين .

هذه التعبئة الحسية الإرادية، هي، في نظري، الركن الأول للجهاد الحاضر لدرء الخطر الصهيوني الجسيم .

***

أما الركن الثاني فهو التعبئة المادية في ميادين العمل كلها. هو تجنيد قوى الأمة الحربية كلها، وتوجيهها إلى ميدان الصراع. ورب قائل يقول : ان الدول العربية لا تزال ناشئة ، وجيوشها قليلة العدد هزيلة العدد، وان في داخلها ومن حولها من المشاكل والمخاطر مالا يسمح لها بأن تلقي بمواردها الحربية كلها في الميدان. وفي هذا ما فيه من الصحة . غير أنه يصعب على المرء أن يقتنع بأن هذه الدول السبع لا تستطع أن تحشد أكثر مما حشدته، أو أنها- لو توفر لها الشعور بالخطر وإرادة النضال على وجهها الصحيح ، و لو أحكمت الخطة وأوثقت التدبير- لما استطاعت أن تجمع قوة حربية أعظم كثيراً من هذه التي أنزلتها للميدان فعجزت عن أن تقف في وجه الصهيونيين. ومن العيب الشائن حقاً ان تظهر الدول العربية- وملايينها التي نتبجح بها دوماً- بهذا العدد الضئيل من الجيوش ، وبهذا العجز عن دك معاقل الصهيونية، بل عن الصمود أمامها. وإذا كان الصهيونيون بحدودهم الجغرافية الضيقة قد تمكنوا من تجهيز أنفسهم هذا التجهيز الوافر الواسع ، فلم يعجز العرب- بحدودهم الواسعة المفتوحة للشرق والغرب- عن أن يستجلبوا بالطرق المشروعة وغير المشروعة ما يحتاجون إليه، أو على الأقل ما يظهرهم بمظهر حربي أقوى مما ظهروا به، إن كان حقاً ان هذا كان جل ما استطاعوه. ومع الاعتراف بما للصهيونيين من موارد غزيرة وما يسندهم

من قوى سياسية ومالية هائلة ، فإن إمكانيات الدول العربية من هذه الوجوه هي أيضاً غير قليلة، لو أحسن استغلالها وتم لها التنظيم المحكم والتدبير المنشود .

وبجانب التعبئة الحربية ، التعبئة الاقتصادية . فهي العصب الحساس والمورد الراوي . ولا أظن ان الشعوب العربية، إذا تفهمت حقيقة الخطر، تحجم عن التضحية بما يجب في سبيل هذه التعبئة. وانه لمما يحزن حقاً أن المناضلين العرب كانوا يفتقرون مثلا إلى أبسط أنواع الأدوية وأدوات المعالجة، وان رسلهم كانت تؤم بيروت ودمشق و سواهما من المراكز العربية، لتستحصل على بعض الحاجات الأساسية التي يصعب على المرء أن يتصور عدم وجودها ، في حين ان جميع الجهات الحكومية والشعبية المسؤولة كانت تعرف اننا قادمون على قتال، بل كانت هي نفسها تهدد بالقتال وتتوعد به. و من المؤسف المثير ان نرى هؤلاء الرسل يطرقون أبواباً مختلفة، فيظفرون حيناً ويخفقون أحياناً ، دون أن تكون هنالك سلطة واحدة معينة تعنى بهذه الناحية على الأقل من نواحي الجهاد .

و كم هي مؤلمة تلك الملاحظات التي يسمعها أحدنا من الزوار والمشاهدين الأجانب الذين كانوا يؤمون البلاد العربية في أيام القتال، فلا يرون فيها مظهر الحرب الحقيقية. يرون السيارات بالألوف تلتهم بنهم عنصراً من أهم عناصر الحرب، ويشاهدون الناس يقبلون على أسباب اللهو والسرور، وعلى الحفلات والدعوات، شأنهم فيما قبل، دون أن تغير الحرب التي شنتها دولتهم والدول العربية الأخرى أياً من عاداتهم ، أو أن تحرمهم شيئاً من ملذاتهم . ولقد كان أحدنا، وما يزال، إذا سمع ملاحظات هؤلاء الناقدين، صادقين كانوا أم غير صادقين، لا يجد نفسه قادراً على ردها، بل يشعر في داخله بخجل عميق.

ومع التعبئة الحربية والاقتصادية تجري التعبئة السياسية: في الداخل لتوحيد أغراض الدول العربية وسياساتها، وفي الخارج لاستمالة الدول الأجنبية. ولا نكران أن ساسة العرب قد بذلوا جهدهم في الناحية الاولى، ولعلهم لا يستطيعون في الوضع الحاضر أن يبلغوا أبعد مما بلغوه، ما دامت الاطماع لا تزال متحكمة،

ومصالح السلالات والأفراد نافذة، وما دام الرأي العام في العالم العربي لم يتنبه بعد ويقو إلى الحد الذي يضغط به على أرباب هذه الأطماع والمصالح الضغط الكافي ليتجردوا منها، قبل أن تدك أرائكهم ويذهبوا هم وأطماعهم هباء منثورا...

أما العمل السياسي الخارجي فقد حاوله أيضاً ساسة العرب فأرسلوا الوفود واتصلوا بممثلي الدول، وبثوا دعايتهم في المؤتمرات الدولية، ولكن جهودهم في هذا السبيل كانت متفرقة غير حازمة. ولا يزال هنالك مجال واسع للعمل. وقد شعرت الجامعة العربية بهذا في الأيام الأخيرة، فكلفت بعض أركانها- على ما قالت الصحف – القيام بمسعى سياسي قوي في أوروبا الغربية قبل انعقاد هيئة الأمم المتحدة في أيلول القادم. وهكذا دوماً تكون محاولاتنا : لا تنفيذاً لخطة محكمة بعيدة الأمد، بل بسبب مناسبة، وفي الساعة الأخيرة .

اما الاتصال بالدول الكبرى فسأتناوله عند عرضي الركن الخامس من هذا الحل. على أن هناك دولاً أخرى يجب تمكين الصلات بها، كدول أميركا اللاتينية مثلاً . ومع أن أكثر هذه الدول خاضع للنفوذ الأميركي والضغط الصهيوني، فلا يحسن بوجه من الوجوه اهمالها ونفض اليد منها. وهناك كذلك الدول الشرقية في آسيا التي تجمعنا بها أخطار الاستعمار الغربي ، والتي عطفت على قضيتنا وآزرتنا، والتي يجب تنمية صلاتنا بها لضمان هذه المؤازرة وتقويتها. ومن المؤسف ان روابطنا بهذه الدول لا تزال ضعيفة، ولا تتعدى بالأكثر اتصال وفودنا بوفودها في المؤتمرات الدولية عند تأزم الخطر وتألب القوى.

هذا فيما يختص بالاتصال السياسي بالحكومات، وتعبئة القوى العربية من هذه الناحية . أما فيما يختص بالدعاية الشعبية والتوجه إلى الرأي العام في هذه الدول، فلقد كان جهد الدول العربية ضئيلاً جداً، وكان يأتي من مصادر مختلفة. حيناً من الجامعة نفسها ، وحينا من بعض دولها، وحيناً من المكاتب العربية التي لم يتضح تماماً باسم من تتكلم . فكان من الواجب أن تقوّى هذه الجهود وتعزز، وتتألف وتتوحد، لتحدث أثرها وتؤتي

ثمرها . على أن هذه الدعاية الشعبية لن يكون لها، مهما قويت وتعززت، أثر بارز في المعركة الحاضرة ، لأن الوقت قصير والخطر مداهم، وعملية التأثير في الرأى العام ليؤثر بدوره في حكوماته عملية طويلة المدى. ولذا، فمع حاجتنا إلى تقوية هذه الدعاية وتوسيعها استعداداً للمعارك القادمة وللحرب الطويلة، فإن جل جهدنا في هذه المعركة الحاضرة يجب أن ينصرف إلى الاتصال بالحكومات ذاتها، والتكلم بلغة المصلحة لا بلغة الحق والعدل ، وتعبئة جميع قدراتنا على المساومة، في هذه السبيل. هذه التعبئة لقوانا السياسية يجب ان تمشي يداً بيد وتنتظم مع تعبئة مواردنا الحربية والاقتصادية بل جميع نواحي حياتنا .

هذا إذا أردنا النجاة والبقاء. وبالعكس، فإن الاستهتار والتهاون في هذه التعبئة العامة سيؤدي بنا إلى شر مما أودى ببعض دول أوروبا الكبرى في الحرب الأخيرة. ومرد هذا الاستعتار ، بلا جدال، إلى ما أشرنا إليه سالفاً، من عدم الاحساس بالخطر إحساساً كافياً ، وبالتالي عدم تنمية الإرادة الواجبة للكفاح والنضال.

لقد أصبحت الحرب اليوم حرباً شاملة، لا تقتصر على الجنود في ميادين القتال بل تتعداهم إلى الشعب بكامله، ولا تكتفي بجانب من موارد الأمة، بل تتطلب تجهيز هذه الموارد بكاملها . وقد فهم أعداؤنا هذه الصفة الأساسية من صفات الحرب الحديثة، فأعدوا للأمر عدته وعبأوا له جميع مواردهم في الميادين كافة.

هذا هو واجبنا فى الوقت الحاضر، وإلى مثل هذه التعبئة يجب أن نتوجه . وإذا اضطرنا ذلك لأن نوقف أعمال الاصلاح والبناء الداخلي، وإلى أن نحول لذلك الغرض مخصصات الأشغال العامة والمعارف والزراعة بل جميع موارد الدول العربية - فوق القدر الأقل الكافي للحياة- فليكن! إذ لا الطرقات، ولا الأبنية، ولا المدارس، ولا الأونيسكو، حتى ولا الحفلات والمآدب، لتغنينا نفعاً إذا انتصر الصهيونيون في هذه المعركة نصراً مؤكداً وأسسوا دولتهم ، وغرزوا مخالبهم في جسم الأمة العربية.

ومن البديهي أن هذه التعبئة في كل من الدول العربية لا تكفي إذا لم تتوحد جهود هذه الدول إلى مدى أبعد مما بلغته في الأدوار السابقة من هذه المعركة . ولذا فالركن الثالث للجهاد الحاضر هو تحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الدول العربية : في ميادين الحرب، والسياسة، والاقتصاد، وسواها . ولا ريب في أن هذا التوحيد مقيد- كما قلنا- بأوضاع هذه الدول ومصالحها وأطماعها ومخاوفها. و لا يمكن أن يحقق على وجهه الصحيح إلا بتبديل عميق شامل. ولذا فهو يدخل في نطاق الحل الأساسي لقضية فلسطين، بل للقضية العربية بكاملها، الذي سنتناوله في الفصل التالي .

غير أنه، بانتظار هذا الحل الأساسي، وهذه المعالجة المديدة الأفق، لا بد من اتخاذ كل اجراء ممكن لتأمين أوفر ما يستطاع من التنسيق والتوحيد بين جهود الدول العربية . ولا أظن أحداً من العرب أعطي شيئا من الملاحظة والتفكير كان يؤخذ بأقوال ساستنا وتصريحاتهم عقب اجتماعات اللجنة السياسية أن الدول العربية لم تكن فى وقت من الأوقات أكثر اتفاقاً مما هي عليه الآن، وان الجامعة العربية لم تكن يوماً أقوى مما هي في هذا الظرف العصيب. بل قد يخيل إلى المرء أن كثرة هذه التصريحات نفسها دليل على ضعف وانقسام يخشى ذيوعه ويراد اخفاؤه، وأن الجامعة لم تصبح بعد من القوة والبأس بحيث تستطع أن تفرض على أعضائها اتحاداً مكيناً في الرأي والعمل .

كم مرة اجتمع أركان حرب هذه الدول في خلال هذه المعركة؟ وفي خلال هدنة الأسابيع الأربعة التي نمنا نحن فيها على فراش وثير بينما العدو يسعى وينظم ليل نهار؟ ترى هل حزمت قيادتنا الحربية أمرها، ونظمت جهدها، واتفقت على خططها في العمل ؟ أليس من أدل دلائل الضعف أننا كنا نسمع كل يوم أربعة أو خمسة بلاغات حربية، بدلاً من بلاغ حربي واحد؟ أليس من الضروري أن تتوحد نظم الجيوش العربية وأسلحتها، بحيث يمكن للجندي العربي أن يخدم في أي جيش من الجيوش العربية بحسب الحاجة؟

وفي ميدان السياسة: أليس بالإمكان إيجاد أداة للتنسيق والتوحيد أخف وأكثر فعالية من اللجنة السياسية، المؤلفة في أكثرها من رؤساء حكومات الدول العربية، يهرعون إليها بين آن وآخر ، وعلى كل منهم أعباء وهموم ثقيلة تشده إلى بلده؟ أليس بالإمكان إيجاد هيئة دائمة ثابتة في مكان واحد يوكل إليها تنظيم الجهد ومتابعته على ضوء سياسة واحدة تضعها الحكومات؟

أما في ميدان الاقتصاد: فإن اللجنة الاقتصادية للجامعة، التي كان يفترض فيها أن تكون في هذا الظرف العصيب، أداة التنظيم والتنسيق في الحرب الاقتصادية والمالية، فإننا لم نسمع لها صوتاً ، ولا أحد يدري ما إذا كانت قد تشكلت وظهرت إلى حيز الوجود، أم لا تزال في سجلات الجامعة ومقرراتها .

وكذلك الأمر في ميدان الدعاية. وفي هذا الميدان، قبل غيره، كان مفروضاً أن يحقق الاتفاق والاتحاد، لأنه المظهر الأول لجهد الدول العربية، والدليل الخارجي على عزيمتها ومتانة قصدها. ولكن الواقع كان على عكس ذلك تماماً . فللهيئة العربية العليا وفودها ، و للمكتب العربي فروعه، وقد وجد ممثلو هاتين المنظمتين فعلاً في وقت واحد في نيويورك ولندن في أدق مراحل القضية، فلم يجتمع لهم جهد، بل كانوا على العكس في تباعد وتنافر وتنافس . ولا ينكر أن أفراد هذه الوفود وسواها، من التي أرسلت إلى البلدان الأخرى ، بذلوا أقصى ما يمكنهم من جهد، ولكن انعدام الوحدة وتعدد السلطات وضياع المسؤولية كانت في النهاية تشل عملهم وتبطله، بل تأتي بعكس المطلوب منه.

هذا التوحيد المنشود في ميادين الحرب والسياسة والاقتصاد والدعاية وسواها مقيد بظروف الدول العربية ووضعها الحاضر، وإنه لا يمكن أن يرتفع فوق مستوى هذا الوضع . فهو الأثر والثمرة، والكيان العربي القائم هو الأصل والعامل. على أن الخطر قوي مداهم : لايمكن معه انتظار الانقلاب الأساسي في الوضع العربي لتأمين تلك الوحدة الأصلية الضرورية لحفظ الكيان ودفع البلاء. ولذا كان على ذوي السلطان وحملة التبعات في الدول

العربية أن يضعوا الغرض العام قبل الأغراض الخاصة، وكان على الرأي العام في شتى أقطار العرب أن يلح في المطالبة بالتنسيق والتوحيد، وأن يضغط ما وسعه الضغط في هذا السبيل، وأن يثور على كل انقسام في الجبهة العربية، كي يذلل ما أمكن العقبات القائمة اليوم في وجه التضامن العربي ويحمي كيان العرب في هذه المعركة .

***

وثمة ركن رابع للجهاد العربي الحاضر: هو إشراك القوى الشعبية في النضال. فالجهاد لا يقتصر على الحكومات وعلى الجيوش النظامية، بل يجب أن يسري إلى عموم طبقات الشعب، بحيث يقوم كل فرد من أفراد الأمة بقسطه منه.

سيقال: ولكن الحرب الحديثة غير الحرب القديمة، وهي تطلب من أساليب التدرب والتمرس على استخدام أدوات القتال الميكانيكية ما يعجز عنه المقاتل غير النظامي، وأن مثل هذا المقاتل قد يعيق في أحيان كثيرة العمل الحربي بدلاً من أن يساعده ويقوّيه.

على أن اختبار الأمم في الحرب العالمية الأخيرة التي استخدمت فيها أشد أنواع الأسلحة وأكثرها ضخامة وتعقيداً دل على أن القوى الشعبية، إذا أحسن تنظيمها، تستطيع أن تكون للجيوش النظامية سنداً قوياً، بل ان تأتي في بعض الأحيان بالضربة الفاصلة. هذا ما أثبته النضال الشعبي في بولونيا، وروسيا، والبلقان، وفرنسا، وغيرها من الدول الكبرى والصغرى. لقد أثبت أن تعلق الشعب بوطنه وتمسكه بأرض آبائه وأجداده ، ودفاعه عن أسرته وشرفه- كل ذلك يبعث فيه من الشجاعة والتضحية والاستماتة ما يعوض على التدرّب الموفور للجيوش النظامية، بل ما يقوي روح المقاومة في هذه الجيوش ، وفي الأمة بكاملها.

ولماذا نذهب بعيداً ، والعدو أمامنا يعطنا على ذلك أفضل دليل وأسطع برهان، ترى هل اقتصر هذا العدو في نضاله على جيوش نظامية، أم أشاع هذا النضال في الشعب

الصهيوني بكامله : في رجاله ونسائه، في مختلف جواليه ومستعمراته، فكان الفرد منهم يشعر أنه خلية من خلايا الجسم المناضل ويدافع ويهاجم بكل ما فيه من قوة وحياة! وإذا كانت هذه حال المغتصب، فكيف يكون حال المعتدى عليه المدافع عن أرضه ودمه وعرضه؟

وسيقال: لقد أثبت الشعب العربي في فلسطين ضعفه وعجزه، فما إن أطلقت القنابل الأولى عليه حتى انهزم شر هزيمة، وجلا عن مدنه ومراكزه وسلمها لقمة سائغة للعدو. بل إن جزءاً كبيراً منه انهزم قبل المعركة واحتمى بالبلاد العربية الأخرى، وبالمناطق النائية من فلسطين.

ولست أنكر أنه قد ظهر في الجسم العربي، في فلسطين وسواها، جبن وتفسخ. ولكن هذه التهمة الشاملة فاسدة في أساسها يردها تاريخ هذا الشعب بكامله، وما يتجلى به من شجاعة طبيعية ومن جرأة وتضحية في القتال. ويردها كذلك ما قام به هذا الشعب خلال الثلاثين سنة الأخيرة في ثوراته المتتابعة على السلطة الغاصبة وفي مهاجمته للصهيونية. ويرد هذه التهمة أيضاً ما بذله أبناء قراه ودساكره من أموالهم ومواردهم في شراء الأسلحة والذخائر بأعلى الأسعار للدفاع عن كيانهم، وما أظهروا من جرأة، وما أحرزوا من فوز في جيوش الانقاذ، وفي الجهاد المقدس، وحيثما تم لهم قسط من القيادة والتنظيم.

كلا ! لم تكن العلة في الشعب نفسه، بل في قادته الذين لم يدربوه، ولم يسلحوه، بل لم ييسروا له سبل التسلح، ولم يدلوه على طريق العمل وسبيل الجهاد. أليس بين ألوف الشعب العربي، المتعلم وغير المتعلم، قلة يمكن تهيئتها لهذا النضال الشعبي، وجعلها خميرة لسريان روح هذا النضال في مجموع الأمة ؟ أليس من بوادر الخذلان الشائن أن يلتفت فريق كبير من الشباب المتعلم في البلاد العربية حوله، ويبحث عن منحى يقوم فيه بنصيبه من الجهاد فلا يجده؟ أليس من الضعف والهزيمة أن تكون أبواب التطوع مقفلة أو ضيقة إلى أبعد حدود الضيق؟

ألا فليحذر أولئك الذين يتهمون الشعب ويعرضون عن النضال الشعبي . فهم بذلك يخسرون عنصراً أساسياً من

عناصر الجهاد، بل يكبتون روح النضال في صميمها. على أن هذه الروح ، وان أضعفت حيناً، فلا بد لها يوماً من أن تهب، وقد تثور على قامعيها أولاً ، ثم تنطلق في جوانب الأمة جميعاً ، لتجعل الجهاد لحفظ الكيان وحماية الوطن بالمعنى الصحيح.

***

والركن الخامس للجهاد العربي الحاضر لحفظ فلسطين استعداد العرب للمساومة، ولتضحية ببعض المصالح لدرء الخطر الأكبر. فمن الضروري أن نشعر أننا لم نبلغ بعد من القوة والسلطان درجة تسمح لنا بنيل مطالبنا وتأمين مصالحنا كلها دفعة واحدة، وأننا مضطرون للتضحية بأشياء في سبيل غيرها، وان للدول الكبرى في بلادنا مصالح هامة يمكننا أن نساوم عليها لبلوغ غاياتنا . فلم يعد بالامكان في هذا العصر الذي تشابكت فيه حياة الدول ، أن تحل أية أمة مشاكلها بالاستقلال عن الأمم الأخرى، ودون تبادل في المصالح والمنافع .

على أن لهذا التبادل شروطاً إذا لم تحقق لم يأت بالفائدة المطلوبة، بل انقلب شراً ومضرة . من هذه الشروط ان لا يكون قائماً على العاطفة و"الصداقة التقليدية" و"المحالفة الطبيعية " ، فهذه كلها لا تعدو في أكثر الأحيان أن تكون اشراكاً وأحابيل لإخفاء الأطماع وتغطية الاستغلال والاستثمار. والأساس الوحيد لهذا التبادل في دنيا المعاملات الدولية الحاضرة هو المصلحة، والمصلحة لا غير. ولذا كان من شروطه أيضاً أن يقبض ثمن كل تنازل عن مصلحة بتأمين مصلحة مقابلة. فلا نخالف مثلاً الدول الديمقراطية على الشيوعية ، ونضطهد الأحزاب اليسارية في بلادنا، لوجه الله وجرياً مع الصداقة، أو لمجرد التخاذل . وكذلك يجب أن يستهدف هذا التبادل مصلحة الأمة بكاملها، لا مصلحة فرد أو طبقة منها. فلا يكون هؤلاء حلفاء- واعين أو غير واعين- للغير على عامة الشعب . وأخيراً يجب أن تنظم مصالح الأمة في مراتب بحسب خطورتها، فيضحى بالقليل في سبيل الكثير، وبالزائل من أجل الباقي.

ولا مراء في أن مصلحة العرب الأولى في هذا الطور من تاريخهم هي في حفظ كيانهم من الخطر الصهيوني. وعلى هذا كان مفروضاً عليهم- بسبب وضعهم الخاص والوضع الدولي العام- أن يضحوا بمصالح أخرى في هذا السبيل. غير ان عليهم كذلك أن يبذلوا هذه التضحية بوعي واحتراز وعلى الأسس التي بينا، وإلا انقلبت هذه المساومة تفريطاً ، وجرت المنفعة من جهة واحدة فقط ، وأضاع العرب مصالحهم تلك فوق مصلحتهم الكبرى في فلسطين.

ولا يعتقدن أحد ان هذه المساومة عمل هين. فإنها تتطلب قيادة الأمة على صراط ضيق ملتو محاط بالمزالق والمهاوي. وتتطلب بصيرة وحسن دراية وتفهماً للعقل الغربي ولمصالح الدول المتضاربة. ولكنها تتطلب قبل هذا كله اخلاصاً لمصلحة الأمة ، وتضحية بالأغراض والأطماع الشخصية في سبيلها. هذه هي الصفات المطلوبة في رجل السياسة للقيام بهذه العملية الدقيقة الخطرة . بها يقاس دهاؤه وتختبر أصالته. بها ترتفع سياسه عن معناها الضيق الحقير وتصبح أداة للبناء والخلق، فما تدخل شيئاً إلا " أصلحته " . بها يستحق أن يحفظ له التاريخ ما حفظ للساسة البناة، الساسة الحقيقيين ، من عز ومجد وفخار.

***

تلك هي، في نظري، الأركان الخمسة للجهاد الحاضر: الاحساس بالخطر وإرادة الكفاح، والتعبئة العامة، والتوحيد بين جهود الدول العربية، واشراك القوى الشعبية ، والمساومة الدولية الواعية، هذه وسواها شروط أساسية لنجاح مسعانا العاجل في رد الخطر الصهيوني وحفظ كياننا القائم منه. وهي ضرورة بسبب التحول الذي طرأ على المشروع الصهيوني، وما أصابه من التقدم في الآونة الأخيرة.

فلقد دخلنا الحرب الحاضرة، و الذهنية المسيطرة علينا هي أن الحال لا تزال على ما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وما قبلها وأن المظاهرات والمناوشات والهجمات المتفرقة هنا وهناك التي جرينا عليها في ثوراتنا على الدولة

المنتدبة كافية في الحرب الحاضرة . وخفي علينا أن غاية هذه الجهود حينذاك كانت إزعاج الدولة المنتدبة وإضعاف هيبتها وخلخلة أسس حكمها، والتأثير بذلك على الرأي العام فيها وفي العالم لتخفيف وطأتها ودفع الخطر الصهيوني القائم على حمايتها. ولما كانت السلطة البريطانية سلطة منتدبة ، وحكمها موقت، نظرياً على الأقل، ولما كانت قوتها العسكرية أقوى كثيراً مما يمكن أهل فلسطين حشده، كان طبيعياً أن يتخذ جهادهم هذا النوع من الكفاح والثورة .

أما الآن فقد اختلفت الحال: لم يعد الجهاد موجهاً ضد دولة منتدبة بل ضد جماعة تؤمن بحقها في البلاد ، ويؤازرها في هذا الايمان فريق كبير من الرأي العام العالمي بفضل نفوذها و سيطرة دعايتها. وهي مستعدة لأن تلقي بجميع قواها في الميدان، لأن المعركة عندها معركة موت أو حياة : العرب أمامها والبحر وراءها، وإذا فشلت الآن فسيقضى على حلمها وعلى الجهود البالغة التي بذلت لتحقيقه خلال السنين.

ثم انها قد حرصت في السنوات الأخيرة على استكمال عدتها وتقوية جهازها، وتحولت من جوال متفرقة ضعيفة إلى قوة موحدة، محكمة الربط ، شديدة المراس . فلم تعد تنفع معها المناوشات، والهجمات المتفرقة، والتجهيز الجزئي فحسب، بل أصبحت الحاجة في كفاحها إلى حرب شاملة بالمعنى الحديث الذي أثبته الاختبار في الحربين العالميتين الماضيتين.

هذا التحول في وضع فلسطين والصهيونية يفرض علينا اتجاهاً جديداً في جهادنا الحاضر ، ويضطرنا إلى تحقيق الشروط التي ذكرناها آنفاً - بل إلى تبديل ذهنيتنا الكفاحية تبديلاً أساسياً ليحقق جهادنا مطلوبه، ويؤتي ثمره، ولنكون حقاً أبناء الحاضر لا أبناء الماضي . وخاسر دوماً من يحارب الحاضر بالغابر!

***

سيقول القارىء : كل هذا قد يكون صحيحاً جميلاً . ولكن ما شأنه في القضية القائمة الآن وفي الأسئلة الملحة التي تجابهنا؟ أيستمر العرب في الهدنة التي فرضت عليهم فرضاً والتي تقوي كل يوم جانب الصهيونيين عليهم؟ أيقبل العرب بالتقسيم، وقد تألبت أكثر قوى العالم لتنفيذه؟ أي موقف تقفه الدول العربية من الأمم المتحدة فيما إذا أصرت على تحقيق التقسيم بالقوة؟

والجواب عن هذه الأسئلة وسواها مما يثيره الوضع الحاضر موقوف على قوة العرب الحربية ، وعلى مقدرتهم في توجيه ضربة سريعة ساحقة. والآراء في هذا الموضوع متضاربة : بين مؤكد أن القوى العربية أعجز في الوقت الحاضر، لأسباب مختلفة، عن أن تحقق هذا الأمر ، وبين موقن، من جهة أخرى، من أن هذه القوى لو أطلق عنانها وأحسن تنظيمها وتنسيقها لسحقت العدو في فترة قصيرة، ووضعت العالم أمام الأمر الواقع . وعلم ذلك عند الله والراسخين من قادة الدول العربية وخبرائها العسكريين. فلا مجال اذن لأي فرد خارج هذه الدائرة، أن يحكم فيه. بل ان من الجرم ابداء أي رأي في هذا الأمر الجلل ، إلا إذا توافرت الأدلة على صحته، لما يترتب عليه من نتائج خطيرة لوضع فلسطين ووضع الدول العربية ذاتها.

ولكن سواء أضربنا هذه الضربة الساحقة ونجحنا فيها وتوصلنا إلى إقامة دولة موحدة ديمقراطية في فلسطين، أم عجزنا عنها وفرض الصهيونيون والعالم علينا التقسيم ، فالكفاح يجب أن يظل قائماً . وان أسوأ ما يخشاه الناظر المحقق أن تخمد روح الكفاح هذه ، حتى في حال نجاحنا بإقامة الدولة الموحدة، فيسري خطر الصهيونية في جسمنا المهلهل السقيم سريان السرطان، ونصحو يوماً فإذا بفلسطين كلها - حربياً ومالياً وروحياً - في يد الأقلية الصهيونية الناشطة المناضلة. كذلك في حال فشلنا وتحقيق التقسيم ، سنصبح لا محالة فريسة سهلة لقوة الصهيونية الامتدادية واطماعها الاكتساحية ، إذا نحن لم نواصل جهادنا ونراع بيقظة ودقة الشروط التي ذكرنا انها واجبة لنجاحه .

بل ان هذا الخطر الامتدادي الاكتساحي ماثل الآن، وقبل نهاية المعركة ، فلنحذر من متابعة طريقنا السابقة الملتوية، ولنجابهه بكل ما أوتينا من عزم وما نستطيع أن نؤلب من قوى، ولنوف لجهادنا الحاضر شروطه الخمسة الأساسية، فنبدأ بذلك طريق الخلاص الحقيقية!

إن عظم المجهود مقيس بعظم الغاية !

الحل الأساسي

إن الجهاد الحاضر الذي وصفناه وأبنا أركانه وشروطه واجب للمعركة القائمة الآن .غيرأن محاربة الصهيونية لاستئصال جذورها والتغلب التام عليها لا تتم في معركة واحدة ، بل تتطلب حرباً مديدة الأفق بعيدة الأجل. ولنسارع إلى القول- بكل صراحة واخلاص - إن هذه الحرب لن تؤدي إلى نصر العرب ما داموا في وضعهم الحاضر، وان جل ما يستطيعون تحقيقه في هذا الوضع هو اتقاء شر الصهيونية الآني وحماية ما يمكن حمايته من الكيان العربي . أما الغلبة التامة النهائية على هذا الشر، فسبيلها غير هذا: سبيلها تبدل أساسي في الوضع العربي، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها.

ان ما أحرزه الصهيونيون من نصر- ولن ينكر هذا النصر إلا متغافل متعام- ليس مرده تفوق قوم على قوم، بل تميز نظام على نظام . سببه ان جذور الصهيونية متأصلة في الحياة الغربية الحديثة ، بينما نحن لا نزال في الأغلب بعيدين عن هذه الحياة متنكرين لها . سببه أنهم يعيشون في الحاضر وللمستقبل، في حين اننا لا نزال نحلم أحلام الماضي ونخدر أنفسنا بمجده الغابر.

الخطر الصهيوني، بل كل خطر اعتدائي علينا، لا يرده إلا كيان عربي قومي متحد تقدمي . فإنشاء هذا الكيان هو الركن الأول للجهاد العربي البعيد، ولا يتم- كما قلت- إلا بانقلاب أساسي في الحياة العربية، ومن هنا كان الجهاد الخارجي لدفع الأخطار الاعتدائية مربوطاً بالجهاد

الداخلي لإقامة الكيان العربي السليم ، بل موقوفاً عليه ومرهوناً بنجاحه .

ترى أيحق لنا أن نقول إن ثمت وطناً عربياً ؟ إذا عنينا بالوطن الجبال والأنهار،والسهول والشواطىء، فهو موجود بلا شك، منذ أن نزل العرب ديارهم الحاضرة . أما إذا عنينا به- كما هو الواجب والصحيح- تغلغل معنى الوطن في الذهن العربي ، وتولد الإرادة لحمايته واعلاء شأنه واطراد تقدمه، فلا!

وسؤال آخر : هل ثمت أمة عربية ؟ إذا أردنا بذلك شعوباً تتكلم اللغة العربية و تنطوي على إمكانات لتحقيق هذه الأمة، فالجواب بالايجاب . أما إذا أردنا بهذا اللفظ - كما هو الواجب والصحيح- أمة موحدة المنازع، محققة الامكانات ، تتوجه للمستقبل، وتفتح عينها للنور، وصدرها للخير، أنى كان مصدرهما ، فلا !

الصهيونيون لم يكن لهم وطن قائم بالمعنى الطبيعي الاول فنسجوا من تاريخهم القديم ومن آلامهم الحاضرة وآمالهم للمستقبل حلماً وعمدوا إلى تحقيقه في أرض غير أرضهم، وقطعوا في هذا التحقيق شوطاً غير قصير، سلاحهم في ذلك تغلغل هذا الحلم وإرادة تحقيقه في صميم حياتهم، واتحادهم في هذه الإرادة، وتأصل نفوسهم في الحياة الغربية الحديثة، واستعدادها لكل تقدم وتوثب.

ليس لهؤلاء الصهيونيين مزايا الأمة الموحدة. فهم من بلاد متباعدة ، يتكلمون لغات مختلفة، وينهجون مناهج متباينة، لا تربطهم إلا رابطة الدين والألم . ومع ذلك فقد وحدتهم الفكرة، وشحذت هممهم، وخلقت فيهم الإرادة الحاسمة للنضال ، فكادوا يحققون- بهذه الإرادة، وباقبالهم المطلق على الحضارة الحديثة - ما ليس طبيعياً ، بينما ان الطبيعي عند العرب- ان يكونوا أمة- لا يزال غير محقق . وهنا الفارق الفاصل !

إن إرادة البقاء والكفاح لا تصد إلا بارادة مثلها وأقوى منها . ووحدة الولاء لا تقهر إلا بوحدة أتم وولاء أشد. والنظام القائم على المدنية الحديثة لا يغلب إلا

بنظام أوسع أخذاً لهذه المدنية وأوفر تسلحاً بقواها. والذهنية المتطورة المتوثبة لن تقف أمامها ذهنية بدائية راكدة. وبالإجمال نكرر: إن الخطر الصهيوني، بل كل خطر أجنبي لا يدفع إلا بكيان عربي متحد محقق لهذه الصفات، ومثل هذا الكيان لا يتأتى للعرب إلا بانقلاب أساسي في نظم عيشهم . فإلى تفهم حقيقة هذا الكيان، وإلى تلمس سبل إيجاده ، يجب أن تنصرف أذهان المفكرين والعاملين في البلاد العربية، الراغبين في حل القضية الصهيونية، بل القضية العربية بكاملها، حلاً أساسياً ناجعاً .

***

فما هي، اذن، صفات هذا الكيان العربي الذي يجب تحقيقه ؟

أولى هذه الصفات الاتحاد: أي أن ينتظم العرب في دولة اتحادية توحد فيها سياستهم الخارجية والاقتصادية، وقواهم الدفاعية. فإن خمس دول أو ستاً ، أو سبعاً مستقلة الواحدة عن الأخرى استقلالاً تاماً - فيما عدا هذه الرابطة الضعيفة التي تمثلها الجامعة - مهتمة كل منها بشؤونها ومصالحها الداخلية، واقعة تحت تأثيرات أجنبية مختلفة وسلطات داخلية ذات مصالح متضاربة- ان دولاً هذا شأنها لا تستطيع دفع عوادي هذا الزمن الجارفة. وإذا كان الاتحاد المنشود غاية قومية يستلزمها ما بين العرب من روابط لغوية وتاريخية ومصلحية، فإن الخطر الصهيوني قد جعلها شرطاً للبقاء ومستلزماً للحياة نفسها ، لأن هذا الخطر، مضافاً إليه الأخطار الأجنبية الأخرى ، كفيل بأن يندس بين هذه الدول ، ويدق في جوانبها الأسافين، فيقوي الاختلاف، ويزيد المصالح المفرقة تباعداً وتناقضاً ،و البناء العربي خلخلة وتصدعاً . والعصي ما دامت منفرطة أو مربوطة بخيط هزيل ، فمن اليسير أن تكسر الواحدة تلو الأخرى . ولا يسلمها من العطب، إلا شد وثائقها بحيث لا تنفرط ، بل تواجه كل ضربة متحدة قوية، فتردها خاسئة خاسرة.

على أن هذا الاتحاد وحده لا يكفي . بل هو نفسه لا يتم إذا لم يتحقق للعرب شرط آخر أساسي : هو التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري . ولذلك وصفنا الكيان العربي القومي المتحد المنشود بأنه أيضاً تقدمي [يخشى بعض القوميين استعمال عبارات "التقدمية" و"الانقلابية" وأمثالهما لكثرة ما يرددها الشيوعيون ، كأنها وقف عليهم وحدهم . على أني لست اعني بها هنا الثورة الطبقية أو سواها من معاني النظرية الشيوعية . وقد آن الوقت الذي يجب أن تعلم به فئاتنا المتحفزة للتحرر، ان التقدم والتوثب لتحقيق الحرية، والثورة على الرجعية والاستغلال ليست من احتكار الشيوعية، كما ان قوميينا يجب أن يدركوا أن أكبر خطر على قوميتنا هو الرجعية بشتى مظاهرها، وانهم إذا ارادوا أن يحاربوا الشيوعية حقاً فسبيلهم الوحيد ان تكون قوميتهم مجارية لقوى الزمان ، مكافحة لمقيدات الماضي، ثائرة على كل استغلال متلمسة سبل التقدم انى كانت] .

وقد أصبح من الضروري لنا أن نعلم- بعد ان غدت القومية عندنا لفظة سهلة تدور على كل لسان - ان التكون القومي لم يظهر في الغرب، ولن يظهر في أية بقعة من بقاع الأرض ، إذا لم تتوفر له شروط اقتصادية واجتماعية وفكرية معينة. فهو لم ينشأ إلا على انقاض الاقطاعية- بلة القبلية- والطائفية والجبرية والغيبية. لم يقم إلا عندما دخلت الآلة فقلبت النظام البدائي الراكد المتفرق في الاقتصاد والعيش إلى نظام متطور اختصاصي متشابك ، وعندما خفضت الحواجز المنيعة القائمة بين طبقات الشعب، وسرى العلم المنطقي المنظم فضبط نوازع الخيال ومجاري الفكر وحوّل العقلية البسيطة الساذجة إلى عقلية واعية متفتحة مركبة.

فالذين يعملون اليوم لإنشاء قومية عربية واتحاد عربي على أساس الوضع الاجتماعي الحاضر يحاولون عبثاً ، لأن جهودهم لا تماشي مجرى التاريخ وقوانين الاجتماع . ولن تثمر هذه الجهود إلا إذا ارتبط الجهاد للاتحاد بجهاد للانقلاب الداخلي وبني على أساسه . فالقومية والاتحاد القومي اللذان قاما في عصر معين- هو العصر الحديث -

وما يمثله من تطور في الفكر والعمل، لا يلتئمان بشكل من الأشكال مع نظم القرون القديمة والوسطى وعقليتها.

هذا التطور بل- في حالتنا نحن- الانقلاب، شرط لازم اذن لبناء كياننا المنتظر. والصفات الثلاث التي أطلقناها على هذا الكيان : "قومي متحد تقدمي " ، مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، لا تقوم الواحدة منها إلا بالأخرى . وهذه التقدمية الواجبة للبناء القومي هي، في الوقت نفسه، سلاح لا بد منه لمجابهة الخطر الصهيوني وسواه من الأخطار الاعتدائية. وبهذا السلاح- كما ذكرنا آنفاً - تغلب علينا الصهيونيون في هذه المرحلة من كفاحنا، وسيظلون يتغلبون ما دمنا عنه معرضين .

***

فما هي عناصر هذه التقدمية، وما هي غايات الانقلاب المنشود ؟

ليس هنا مجال التفصيل في هذا الموضوع، ومقابلة ما عليه وضعنا الحاضر بما يجب أن نكون. وإنما نوجز فنقول إن غايات هذا الانقلاب تجتمع أخيراً في غاية واحدة واضحة، هي أن نصبح بالفعل وبالروح، لا بالاسم والجسم فقط ، قسما من العالم الذي نعيش فيه ، نجاريه في نظم العيش والفكر، ونتكلم لغته، ونتصل بأصوله ، ونضم مقدراتنا إلى مقدراته. ولبلوغ هذه الغاية يجب أن نتخذ خطى عديدة تقلب حياتنا من أوضاع العصور الوسطى والقديمة إلى وضع العصر الحديث .

وأهم هذه الخطى، في نظري، هي التالية، أعددها، تاركاً استقصاء بحثها وتفصيله إلى مناسبة أخرى .

أولاً : اقتباس الآلة واستخدامها في استثمار مواردنا على أوسع نطاق ممكن . والآلة هي في مقدمة العوامل التي أحدثت في الغرب ذلك الانقلاب الذي أدى إلى نظام الحياة الحديثة. وادخالها في حياتنا الحاضرة، وما ينتج عنه من "تصنيع " لهذه الحياة ، كفيل إلى حد بعيد بتهديم

القبلية والاقطاعية وسواهما من النظم القائمة في وجه القومية .

ثانياً : فصل الدولة عن التنظيم الديني فصلاً مطلقاً، فإن الفكرة القومية منافية للثيوقراطية الحرفية. وكل دولة في الغرب إنما حققت من التماسك القومي بقدر ما استأصلت من جذور الطائفية ونظمت حياتها على أساس آخر ما توصل إليه العقل المتفتح والفكر المتراكم .

ثالثاً : تدريب العقل و تنظيمه بالإقبال على العلوم الوضعية والتجريبية ، وتوجيه الجهد الثقافي في الأمة إلى تحقيق أكبر قدر من هذا الانتظام العلمي ، والابتعاد ما أمكن عن الخيال المخدر والرومانطقية المائعة، الضائعة المضيعة. فليس كالعقل المنتظم أداة لاستئصال الباطل وتركيز حياة الأمة على أسس سليمة.

رابعاً - وعلى وجه الاجمال- فتح الصدر واسعاً لاكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية وروحية اثبت صحتها الاختبار الإنساني الجاهد- فكراً وعملاً - لبناء الحضارة. فإنشاء الدول لا يقوم على اكتساب الأدوات المادية والعقلية وحسن استخدامها فحسب، بل على متانة في الخلق، وعمق فى الايمان، وصبر على المكاره ، وانطلاق إلى الخير: وهذه كلها لا تتحقق إلا إذا ثبتت الامة جذورها في القيم الاساسية التي كشف عنها الجهاد الإنساني خلال العصور.

هذه ،عندي، هي الصفات الأساسية للتقدمية المنشودة وللانقلاب المرغوب فيه لحياتنا الحاضرة . وقد ينظر البعض إلى هذا الرأى شزراً ، ويظنون أن في هذا الإلحاح على اقتباس المدنية الحديثة، بماديتها وروحيتها، خروجاً على تاريخنا وإضاعة لتقاليدنا القومية. والواقع ان من تقاليدنا ما هو زائل ، وهذا سيتهدم وينهزم أمام قوى الحضارة الحديثة، سواء أشئنا أم أبينا . اما الصحيح الباقي، الموافق لهذا الزمان، بل لكل زمان، فهذا لا نستطيع أن نكتشفه عن الفاسد الزائل، ونتمثله في حياتنا الحاضرة تمثلاً تاماً محيياً، إلا بفعل العقل المتحرر

المنتظم الذي يجب أن نقتبسه من المدنية الحديثة ونبني انقلابنا على أساسه.

ومها يكن من أمر، فليطمئن المشككون! إذ لن تستطيع هذه التقدمية أن تودي بنا إلى شر مما نحن عليه. فلقد انتهى وضعنا الحاضر، لدى الهزة التي أصابته من النضال الصهيوني ، إلى افلاس مادي ومعنوي فاجع، ولم تغننا تقاليدنا في هذا النضال فتيلا. بل وجدنا ان عدونا - بالرغم مما اكتسب واختزن من الحضارة الحديثة، بل بفضل هذا الاختزان - يفوقنا في شدة الايمان، ووحدة الولاء والتمسك بالقوم والأرض والوطن، مثلما يفوقنا في الأسلحة الحربية والأدوات المادية. فلا خوف إذن علينا من هذه التقدمية القومية ′ بل الخوف كل الخوف من الانقباض عنها والتنكر لها والاختناق في أصدافنا الصلبة الموروثة .

***

بقي سؤال واحد وأخير: ما السبيل إلى هذا الانقلاب الشامل المحقق للتقدم القومي على ابلغ وجه وأوسع نطاق؟

هنالك سبل ممهدة لهذا الانقلاب ومساعدة له، منها: تشجيع الجهد الوطني في استغلال موارد البلاد، ونشر العلم والثقافة بشتى الوسائل، وتوسيع مدى الحريات السياسية والاجتماعية والفكرية ، واصلاح سبل الإدارة ، وما إلى ذلك من وسائل التطور والتقدم .

غير أن هذه الوسائل، على ما لها من الأثر البعيد في الانقلاب المنشود، محدودة من وجهتين : الأولى أنها بطيئة العمل، تحتاج إلى جهد مديد ووقت طويل لكي تحدث التبديل الأساسي المرجو لوضعنا الحاضر. ونحن في حال لا نستطيع معها أن نفسح للوقت مداه، وان نطلق للجهد حريته ليقوم بعمله على مهل وبراحة. الأخطار الخارجية والداخلية التي تهدد كياننا لا تسمح لنا بانتظار التطور والتدرج، بل تفرض علينا الوثب والانقلاب، إذا أردنا السلامة وآثرنا البقاء. ثم ان هذه الوسائل

المذكورة تحتاج إلى من يوجدها ويقويها ويعممها: إلى صنعة مخلصين قادرين، وقادة مبدعين . فهي ، من جهتها ، تساعد على وجود هؤلاء القادة، ولكن هؤلاء، متى وجدوا، هم الذين يضبطونها ويوجهونها لتغزير نتائجها وتعزيز أثرها في احداث التبديل الأساسي المطلوب .

ان عوامل التقدم، كجميع قوى الحياة، متداخلة متشابكة، فالسبب يحدث نتيجة، وهذه بدورها قد تصبح سببا وتفعل في السبب الأول تقوية وتدعيما . وليس من عاقل يود أن يبطل الوسائل التطورية التي ذكرناها- كنشر العلم وما إليه- ولكن لا شك في أن نقطة الانطلاق في ما يجب أن نسعى إليه اليوم من تبديل وانقلاب إنما هي في القادة والصنعة، في الفئة المختارة المبدعة التي تستطيع أن تقبض على هذه الوسائل وتدفعها دفعاً في السبيل الوحيدة المطلوبة.

هذه الفئة المختارة التي ستلقى على عاتقها هذه المهمة الخطيرة- بل التي ستأخذ هي هذه المهمة وتقتنصها اقتناصاً- يجب أن تكون قد حققت في نفسها التقدم والانقلاب اللذين تسعى إليهما في المجتمع . فالذي يعمل عن شهوة لا عن ايمان لا يستطيع أن يبث الايمان في الأمة، مهما علا صوته وزخرف قوله. والذي لم يحرر نفسه بل ظل عبداً لنوازعه وأطماعه لا يمكنه أن يحرر الغير، مهما ارتفع مركزه وعظمت سلطته. والذي يخيم الظلام على عقله ويعشش عنكبوت التعصب والرجعية في زوايا دماغه لن يتأتى له أن يبث النور في أمته، وأن ينشر التسامح والتضامن والوحدة في مجتمعه، مهما تظاهر بهذا اللون واكتسى هذا الكساء.

ولذا فالشرط الأول لنجاح العمل التقدمي الانقلابي ان يكون قادته تقدميين في أنفسهم، انقلابيين في صميمهم. فعلى كل من يتصدى لهذه المهمة الخطيرة ، ان يزن نفسه بهذا الميزان، ويقدرها هذا القدر، وعلى الشعب عامة- والمثقفين المتحررين منه خاصة- ان يحكوا قادتهم بهذا المحك، فمن خلص معدنه كان حرياً بالقيادة ، ومن ثبت زغله حكم عليه ونال جزاءه.

ومن متممات وجود هذه الفئة المختارة ان تنتظم وتتحد في أحزاب ومنظمات محكمة تقوم على عقيدة صافية موحدة، وترتبط بولاء صحيح متين تخضع كافة نزعاتها له وتدين به عن رضى واختيار. وان نظرة واحدة إلى تاريخ النهضات في العالم لتدل بأجلى بيان على أن اجتماع قوى هذه الفئات المناضلة في هذه المؤسسات الحزبية وسواها كان أكبر عامل في إحداث النهضة وقلب الأوضاع.

ومن متممات وجود هذه الفئة كذلك ان تبرز إلى الوجود الزعامة الحقيقية، وان تولد أولئك الأفراد الذين يبنون الدول ويخلقون الأمم ويصنعون التاريخ . أولئك الذين تمتد جذورهم عميقة إلى حياة الشعب كما هي، وترتفع أنظارهم في الوقت نفسه إلى ما يجب ان تكون، وما يزالون يعملون، بمساندة اخوانهم في العقيدة والولاء، حتى يتم لهم أو لمن بعدهم صوغ الحياة الجديدة وتعمير الكيان المتهدم . أولئك الذين يعيشون كل دقيقة من دقائق عمرهم تحت وطأة الضمير، وفي رهبة من حكم التاريخ . أولئك المتصوفون- لا تصوف زهد وإعراض، بل تصوف إقبال واقدام- الذين لا يسعون إلى الرضى والسعادة ، بل تأتيهم السعادة والرضى في فناء ذواتهم بذات الوطن الكبرى . وبكلمة: أولئك الذين بدونهم ، وبدون أمثالهم من المصلحين، ما وجدت أمة، ولا زهت حضارة، ولا كان للحياة الانسانية أي طعم أو معنى .

***

ان الكيان العربي القومي المتحد التقدمي الذي يتضمن، كما قلنا، الحل الأساسي لقضية فلسطين بل للقضية العربية كلها، سيبقى حلماً وإمكانية، ما لم يتحقق أولاً في نفوس الفئة المناضلة من أبناء الأمة- وعلى رأسها الزعامة الحقيقية المتولدة منها- ثم في النظم التي تنتظم بها هذه الفئة، والأحزاب والمؤسسات التي تنشئها.

وينظر أحدنا حوله فيجد ان نقطة الانطلاق هذه ما تزال ضعيفة، وأن الفئة المناضلة المطلوبة ما تزال قليلة متفرقة، لم تتقو بعد بالنظر النير والجهاد الصاهر، وقد تضافرت مناوآت الاستعمار والطبقات

الحاكمة ومغرياتها على إضعافها وتشتيتها، فكان لأفرادها بعض الأثر ، ولكن لم يكن لها مجتمعة متحدة اثر ملموس أو عمل بين.

ويلتفت فتيان هذه الأمم وشبانها، فلا يجدون ضالتهم، من جهة، في الزعامات القائمة ، ولا تروي طموحهم المتوثب، من جهة أخرى، جهود الفئات القومية المتفرقة، فيجتاحهم اليأس ، و تطغى على نفوسهم الحيرة: فإما أن ينتهوا إلى الشك في ذات أمتهم، والقنوط من إمكانيات شعبهم، ويتبعوا الطريق المرسومة في ارضاء الشهوات والتهالك على المغريات ، وأما ا ن يصبحوا طعماً لأية حركة هدمية، يجدون عزاءهم في الصخب والاضطراب لذاتهما ، ومهما كانت نتيجتهما. ولا ينجو من هذه الأخطار ويحافظ على ايمانه وعقيدته إلا قلة من ذوي النفوس القوية والأعصاب المتينة. ولكن حتى هؤلاء في خطر من التفرق و الضياع بعد نكبة فلسطين!

على أنه مهما كان من أمر، ومهما كانت عليه فئاتنا المناضلة في هذه الأيام من ضعف وتفرق ، فمما لا شك فيه ان منها نقطة الانطلاق، ومبدأ الطريق، ومبعث الرجاء.

***

هو ذا مبدأ الطريق . أما اتجاهه ففي شحذ روح المقاومة والجهاد عند هذه الفئات المناضلة، ودوام تفاعلها مع الشعب واحساسها بحاجاته، وتتبعها لنهضات الأمم الأخرى واكتسابها لاختباراتها، وتمكين تآلفها وانتظامها، وانصهارها في الولاء الواحد، وتكرسها المتجدد للغاية المرسومة - إلى أن تصبح من القوة والاتحاد بحيث تحقق الكيان المرجو في ذاتها، فتغدو بذلك أهلاً لأن تحققه في مجتمعها.

إن الانقلاب الأساسي في وضعنا الحاضر، الذى فيه حل قضية فلسطين والقضية العربية بمجموعها، مرهون بمدى ما تقطعه فئاتنا المناضلة في هذه الطريق ، وبنوع الزعامة التي ستتولد منها في جهادها هذا. ولعل هذه الفئات

ستجد أن أول ما يتطلبه هذا الانقلاب انقلاب في ذاتها، وذهنيتها، وطرق تفكيرها وعملها. فالثورة، ما لم تبدأ في النفس وعلى النفس، لا يمكن أن تنتهي إلى الغير أو أن يكون لها أي أثر في المجتمع. فلتنظر فئاتنا المناضلة في نفسها بهذا المنظار، ولتحاسب نفسها هذا الحساب، فالموقف فاصل، والنتائج حاسمة، وقوى الحياة لا ترحم.

وفي النهاية لن يصيبنا، ولن نصيب، إلا ما نستحق!

معنى النكبة

إن المتتبع لتاريخ الأمم وتطور الحضارات ليلاحظ أن نشوءها وتقدمها منوطان بما يكتنفها من صعاب وشدائد. وليس صحيحاً ما يقوله البعض إن الحضارات ظهرت أولاً في بلاد خصبة الأرض، سهلة الموارد، جيدة المناخ. فاليسر والسهولة لم يكونا يوماً من الأيام سبيلاً إلى النمو والتقدم . وإنما نشأت الحضارات ونمت عندما جابهتها في محيطها الطبيعي أو البشري مصاعب ومشاكل دعتها إلى جهد الفكر وبذل النفس للتغلب عليها. فكان في هذا البذل والجهد مسبب تقدمها وسبيل خلاصها.

وحال الأمم في هذا حال الأفراد. وكلنا يعلم أن الفتى الذى ييسر له أبواه جميع أسباب التعلم والعمل ، لا يصيب ما يصيبه الفتى المعوز المضطر من كسب ونجاح . ولهذا نرى الأسر في الأغلب أجيالاً : جيلاً يبني ويجمع بالجد والنصب، ثم يأتي من يتمتع ويتنعم ، ثم من يبذر فيضيع.

فالمصاعب والشدائد- حتى النكبات- حافز إذن للأفراد والجماعات، وعلة من علل تنبهها و نهضتها. ولكنها ليست كذلك في جميع الأحوال. ففي بعضها تكون سبباً للتهدم والانهيار ، والتبدد والزوال .

الضربة التي توقظ الفتى الناشىء وتؤدي إلى رد من جانبه قد تقضي على الشيخ الهرم المتداعي . والمشكلة التي تنبه العقل المتفتح وتزيده نشاطاً وفعالية قد تشل العقل المتفسخ المتراخي .

وكذلك عند الأمم : فرب أمة تغلبت على ما في محيطها الطبيعي من عوائق وحواجز ، وأخرى ارتدت عن مثل هذه العوائق عاجزة خاسرة. بل ان الأمة نفسها تكون في دور من أدوار حياتها أقدر على تذليل عقبة ما مما هي في دور آخر، وتستطيع في بعض الأحوال أن تتلقى الهجمات والنكبات وتنهض أكثر قوة وحيوية، بينما تنهزم، أو تنعدم ، في حال أخرى . والتاريخ مليء بالشواهد على هذا كله.

يعتقد البعض ان هجمات البرابرة هي التي قضت على الدولة الرومانية. والواقع ان الامبراطورية الرومانية كانت قد تلقت قبل البرابرة صدمات أشد هولاً وأعظم خطباً، فصمدت لها وتغلبت عليها، بل اكتسبت من عراكها قوة جديدة وعزماً أنفذ. ولكنها، عند مجيء البرابرة، كانت قد انحلت داخلياً ، فلم تقف أمام هجماتهم. بل ان انحلالها ذاته هو الذي دعا البرابرة إليها، وأطمعهم فيها.

وما زال بعضنا يؤمن بأن غزوات الترك والتتر هي التي قضت على الخلافة العباسية

وعلى الملك العربي عموماً . ولكن الواقع هنا أيضاً هو أن العرب كانوا قد غلبوا على أمرهم داخلياً ، قبل أن يغلبهم التتر، وأنهم لو شنت عليهم تلك الغزوات وهم في دور تنبههم ونموهم لما طغت عليهم، بل لعلها كانت، بالعكس ، منشطة لهم ومجددة.

وهكذا الحال عند باقي الأمم.

***

إن النكبة التي نزلت بنا اليوم هي اذن محك لوضعنا الداخلي الحاضر. فإذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا، فإن هذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالاً وتفرقاً . أما إذا كان لعوامل التقدم والنمو بعض القوة- حتى لو لم تكن هي السائدة- فإن الصدمة العنيفة التي تلقيناها خليقة بأن تعزز هذه العوامل وتمشي بها قدما بمزيد همة، وتراكم أثر.

وإنا كثيراً ما نتكلم عن نهضتنا العربية الحاضرة ونباهي بها. هذه النهضة هي اليوم رهن التحقيق، وفي نار المختبر: فإما أن تخرج بريئة خالصة، وإما أن يظهر ضعفها وفسادها، وطغيان قشورها على لبها، وصخبها على صحيح عملها.

ولما كانت القوى المناضلة التقدمية هي التي تحمل في النهاية أعباء هذه النهضة، فإن النكبة الحاضرة- بل كل صدمة تلقيناها في الماضي، أو سنتلقاها في المستقبل- هي في الحقيقة اختبار لها، وامتحان لمناعتها ومتانتها، ولكفاءتها للعمل وأهليتها للقيادة. وهذا الامتحان لا قيمة له ولا أثر إذا لم يكن المرء واعياً إياه، بل إذا لم يصبح هو ذاته الممتحَن والممتحِن بوقت واحد.

فعلى كل عربي يضع نفسه في هذه المرتبة أن يتفحص حاله ويتبين قدره. على رجال الفكر، وعلى المجاهدين في شتى مناحي العمل، بل على كل متوثب متحفز لخدمة أمته- على هؤلاء جميعاً أن يمتحنوا أنفسهم، فرادى وجماعات، ليروا ما إذا كانت هذه النكبة قد أضعفتهم وشتتهم أو زادتهم عزيمة ومضاء واتحاداً .

ليمتحنوا خلقهم ومقدرتهم على الصمود في وجه التعسف والإغراء!

ليمتحنوا عقيدتهم وولاءهم وقوتهما إزاء المحن والخطوب!

ليتفحصوا تقدميتهم وانقلابيتهم وحدتهما وصلابتهما أمام ضغط الرجعية وحملاتها !

ليقيسوا تفتح أعينهم للنور، وصدورهم للتحرر بكل معانيه!

ليحاسبوا أنفسهم ، ويثوروا على مواطن الضعف والتشتت فيها، ويحتفظوا بعناصر القوة ويمكنوها ! .

فإن فعلوا ذلك ، خرجوا من هذه النكبة أمضى عزيمة وأقوى اتحاداً ، وكان لأمتهم رجاء في الحياة وعدة للمستقبل.

عندها ينقى ، بنار المحنة، جوهرنا ويتبلور كياننا.

عندها ، وعندها فقط ، يكون للنكبة معنى ايجابي بنائي.

عندها ، وعندها فقط ، يخرج من العسر يسر، ومن الاضطراب عزم وصفاء، ومن النكبة بذور ظفر وانتصار!

ملحق في مبادىء جهادنا في فلسطين

يجد القارىء في ما يلي فصلين كتبا في مناسبتين مختلفتين قبل النكبة، حاولت أن أبين فيهما المبادىء التي يرتكز عليها جهادنا في فلسطين. ويخيّل إليّ الآن، وقد حدث ما حدث، ان القارىء سيشعر لدى قراءتهما بشيء من الفراغ في ألفاظهما ومعانيهما، وسيتساءل عما إذا كان يصح لنا أن نتحدث عن المبادىء، بعد أن أثبت سير قضية فلسطين ان الكلمة العليا هي للقوة، وان المصلحة طاغية طغياناً تاماً في سياسات الدول وعلاقاتها بعضها ببعض.

سيقول، ولا شك : آمنت بسمو المبادىء التي تقوم عليها قضيتنا ، ولكن ما نفع ذلك وغناؤه؟ ماذا أفاد العرت صحة هذه المبادىء وعدالتها؟ أي أثر كان لها في القرارات التي اتخذتها أعلى المنظمات الدولية في هذه القضية، وفي السياسات التي تتبعها الدول الكبرى والصغرى تجاهها ؟ هل ثمت ضمير دولي أو عالمي يتأثر بالحق والمبدأ، عندما تلوح المصلحة المادية، أو يفعل النفوذ فعله، أو تكشر القوة عن أنيابها؟ لنشح بوجهنا إذن عن الكلام الطيب والمعنى الجميل، ولننصرف بكل ما فينا إلى التجهز المادي وإلى استجماع القوى وتعبئة الموارد للمضي في كفاحنا.

وما أنا عن هذه الدعوة إلى بعث قوانا وتجميعها بغريب. بل إذا كان ثمت مغزى لتحليلي، في صلب هذا الكتاب، لأسباب نكبتنا وسبل معالجتها، فهو هذا بالضبط. هو تنمية روح الكفاح ، وتعبئة الموارد، وتعميم الجهاد. هو استئصال جذور الضعف وبواعث التفرقة، وتنقية جسم الأمة من ادران الفساد والرجعية

ليغدو سليماً قوياً مؤهلاً للبقاء والنمو، متغلباً على نفسه قادراً بذلك على الصمود لسواه . هو الانبعاث القومي الشامل، والتجدد التقدمي الدائم .

على ان هذه الدعوة إلى التقوّي والانبعاث لا تنافي تحرّي المبادىء واتباعها. بل ان الجهاد ليكتسب قوة إذا استند إلى عقيدة، وصدر عن ايمان، وتعلق بمبادىء سامية وقيم أصيلة. هكذا علّم التاريخ وأثبت اختبار الشعوب. فالقوة العارية الغاشمة كثيراً ما طغت في حياة الأمم ، ولكن إلى حين. والثورات التي نشدت الاستيلاء على السلطة فحسب، لم تؤد إلى غير الاضطراب والهدم . أما الثورات الحقيقية، الثورات البانية المجددة، فقد كانت تدعمها المبادىء، وتسيرها الأحلام الجميلة والمثل العليا الساطية على أذهان القادة، المحركة لنفوس الشعب.

فلا يضير جهادنا في فلسطين إذن ان يصدر عن مبادىء صحيحة، ولا يضير انقلابنا القومي المنشود أن تدعو إليه عقيدة سليمة وترسمه أحلام صادقة ومثل عليا مبدعة. إنما الضير كل الضير ان نعتقد أن هذه أو تلك قادرة على حفظ كياننا وتأمين تقدمنا، إذا نحن لم نعقل جملنا، ونحزم أمرنا، ونعدّ لغدنا ما استطعنا من قوة.

وليست هذه القوة المنشودة في المال والسلاح والوسائل المادية وحدها. وإنما هي أيضاً في عمق الإيمان، وشدة الولاء، والاستعداد للتضحية، والثبات في وجه التثبيط والاغراء. هي في قوة الخلق، ومتانة العصب، وسلامة النفس. هي في اتفاق الرأي، واتحاد العمل، وانصباب الجهد في السبيل المؤدية للغاية.

هذه القوة، الخلقية الروحية، الضرورية للنضال لا تتأتى للمرء أو للشعب إذا لم يتبين المبادىء التي يرتكز عليها نضاله، والغايات التي يسعى إلى تحقيقها، وقيمة هذه الغايات والمبادىء في ميزان الاختبار التاريخي والتقدم البشري .

ان من دلائل الفساد واختلال القيم والموازين في هذا العصر- ذلك الفساد الذي بدا واضحاً فاضحاً في سير قضية

فلسطين- ان يعمد رجل مهمته خدمة الفكر وغرس المبادىء في قلوب الناشئة إلى أن " يُلحق " بحثه في المبادىء إلحاقاً بدلاً من أن يضعه في المقدمة، وإلى أن يضطر إلى أن يبرر لنفسه ولقرائه ولوج هذا البحث. ولكن، ليُسجل لنا، على الأقل، اننا لم ننس هذه المبادىء، ولنظل، من جانبنا، نعمل في تثبيت أصولنا فيها، وتقوية نفوسنا بما تبعث من عزيمة وايمان، ولنحتفظ بها ونستند إليها ونستمد منها ونحن نجمع قوانا للكفاح الحاضر وللانقلاب القومي المنتظر.

هذا الذى أهاب بي إلى ضم هذين الفصلين إلى الرسالة، آملاً أن تتسق فكرتهما وفكرتها، وأن يؤديا معاً بعض ما أرجو في إعداد الفكر الصحيح والعمل المثمر لحل قضيتنا العاجلة والآجلة.

الصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين

[نشر في العدد الخاص بعيد الميلاد (١٩٤٧) من جريدة العمل (بيروت)]

طلبت مني جريدة "العمل " الغراء أن أكتب مقالاً في القضية الفلسطينية، فترددت لسببين : أولاً كثرة ما كتب في هذا الموضوع من نواحيه المختلفة، وما توافينا به الصحف والمجلات والراديو يومياً من آراء الساسة والكتّاب والمعلقين على الأخبار مما لم يعد يفتقر إلى مزيد، وثانياً ان هذه القضية قد بلغت حداً لم تعد الحاجة فيه إلى القول والجدل والمناقشة، بل إلى العمل السريع والتنفيذ الحاسم . غير اني عدت فلبيت الطلب، آملاً أن يكون في ما سأقول بعض الفائدة في إنارة المشكلة والكشف عن أسسها.

ولما كانت ظواهر هذه المشكلة متعددة، وتفاصيلها متشعبة، وكانت هذه الظواهر والتفاصيل قد أخذت، كما قلت، بالبحث الواسع والشرح المستفيض، رأيت أن خير ما يمكن عمله هو النفاذ إلى الجوهر ورد الفروع إلى الأصل. فالمشاكل لا تفهم في حقيقتها إلا عندما تردّ إلى أصولها ومبادئها. وقد كان من أثر الدعاية الصهيونية الهائلة ان حيك حول لب المشكلة الفلسطينية نسيج من الآراء

المضللة ألهى الرأي العام العالمي عن حقيقة ذلك اللب، فأصبح من العسير العودة إليه والوقوف على حقيقته. فلنعرّ هذه المشكلة اذن من ظواهرها وأعراضها، ولننفذ إلى الباطن والجوهر، ماذا ترانا نجد؟

نجد أننا أمام قضية يتصارع فيها المبدأ من ناحية، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية. وعلى هذا فأثرها لا يقتصر على العرب والصهيونيين فحسب، بل يتناول العالم أجمع فهي محك لحيوية الضمير العالمي، ولقوة التنظيم الدولي، وهي دليل على الاتجاه الذي سيتبعه المجتمع الإنساني : إلى العدل والسلام أو إلى الظلم والحرب المستمرة.

المبدأ في هذه القضية هو حق كل شعب بالأرض التي يعيش عليها، والتي عاش عليها أجداده قروناً طويلة، والتي صبغها بدمه وعرك ترابها بعرق جبينه، حقه في استثمار مواردها، وفي أن ينشئ لنفسه عليها الكيان السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يختار، شرط أن لا ينتقص من حرية غيره من الشعوب وحقوقهم.

ولقد جاهدت البشرية قروناً عديدة في سبيل اقرار هذا الحق، فأهرقت باسمه الدماء وبذلت من أجله الضحايا، حتى كانت الحرب العالمية الأولى، فأعلنه زعماء الأمم الحليفة، وخُيل للعالم أنه سيكون أساس التنظيم الدولي بعد تلك الحرب. ولكن هذا الخيال ما لبث أن تحطم على صخرة المصلحة، وعادت القوة والتوازن الدولي يسيّران دفة العالم . وكذلك كان الأمر في الحرب الأخيرة : اعلان مبادئ سامية في ميثاق الأطلنتيك وسواه، وتنظيم دولي جديد في الأمم المتحدة، ولكن القوة والمصلحة والتوازن الدولي لا تزال، مع الأسف ، هي العوامل الفعالة في السياسة الدولية.

ونحن إذا راجعنا جميع القرارات والاجراءات التي اتخذت بشأن فلسطين وجدناها مناقضة لحق العرب الطبيعي، وللمبدأ الأساسي في حق الشعوب بتقرير مصيرها ، هذا المبدأ الذي أعلنت الدول انها تحارب من أجله، والذي بذلت باسمه الضحايا والنفوس بسخاء عجيب.

فوعد بلفور الذي أعطته انكلترا لليهود، والذي يتخذه الصهيونيون أول حجر أساسي في دعواهم القانونية، مخالف كل المخالفة للمبدأ المذكور. إذ ليس من حق الانكليز، بأي وجه من الوجوه، أن يتصرفوا بأرض ليست أرضهم ، وأن يقرروا مصير شعب غير شعبهم . ولست أريد أن أتناول هنا مخالفة هذا الوعد للعهود التي قطعها الانكليز للعرب- على أهميتها- لأني اقتصر في بحثي هنا على الناحية المبدأية فحسب، دون النواحي الأخرى السياسية أو سواها، التي هي ايضاً في جانب العرب.

ولقد يقول قائل: إن الانكليز اكتسبوا حق التصرف بفلسطين بكونهم افتتحوها وغنموها من الأتراك العثمانيين. والرد على ذلك ان الانكليز لم يفتحوها وحدهم ، بل بمشاركة العرب الذين حالفوهم وهبوا في ثورتهم الكبرى المعروفة لتحرير بلادهم . على أن الرد المبدأي الأهم هو أن حق الفتح لم يعد يمكن اتخاذه دستوراً في التنظيم العالمي، وإلا رجعنا بالمدنية إلى العصور المظلمة، ودسنا بأقدامنا المبدأ القومي الأساسي : وهو حق كل شعب بأرضه وبتقرير مصيره.

وقد يقول آخر: إن وعد بلفور قد اكتسب صفة قانونية دولية عندما أقرته جمعية الأمم وجعلت منه أساساً من أسس انتداب انكلترا على فلسطين. والجواب ان ما يبنى على أساس فاسد يبقى فاسداً ولو أقره العالم أجمع. ثم ان الانتداب على فلسطين نفسه مناقض لمبدأ الانتداب العام المنصوص عليه في المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم . فقد جاء في الفقرة الرابعة من هذه المادة : " ان بعض المجتمعات التي كانت تابعة فيما مضى للامبراطورية العثمانية قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف موقتاً بكيانها كأمم مستقلة بشرط أن تمدها بالمشورة والمعونة الادارية دولة منتدبة إلى أن تصبح قادرة على حكم ذاتها بذاتها. وينبغي أن يكون لرغبات هذه المجتمعات الاعتبار الأول في اختيار الدولة المنتدبة".

وعليه فإدخال وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين ليس مخالفاً لحق العرب الطبيعي فحسب، بل يناقض كذلك

المبدأ الأساسي المتعلق بجميع الانتدابات على الأراضي التي كانت خاضعة للسلطة العثمانية والتي اعتُرف باستقلالها موقتاً . فإن سياسة الهجرة والعمل لبناء وطن يهودي قومي ينتقصان، ولا شك، من هذا الاستقلال المعترف به . ناهيك بأن أهل فلسطين لم يؤخذ رأيهم لا في الانتداب نفسه، ولا في اختيار الدولة المنتدبة.

وهكذا ظلت فلسطين تحكم مدة خمس وعشرين سنة بنظام غير مبني على مبدأ طبيعي أو قانوني، بل قائم بالفعل على القوة والمصلحة. وبهذه القوة سُطي على سيادة العرب بدلاً من أن يحافظ عليها، وأصبح كيانهم في بلادهم محفوفاً بالخطر، مهدداً با لزوال .

وجاءت الأمم المتحدة اليوم فاقترفت الجريمة نفسها، وضحت بالمبدأ على مذبح المصلحة. فقرارها في التقسيم مخالف لحق أهل فلسطين بتقرير مصيرهم بالطرق الديمقراطية المعروفة ومناقض كذلك لميثاق الأمم المتحدة نفسه نصاً وروحاً . فلو فرضنا أن الانتداب على فلسطين يقوم على أساس قانوني- وهو ما أظهرنا بطلانه- فإننا لا نجد في أية مادة من مواد الفصل الثاني عشر من الميثاق، الذي يتناول البلاد المنتدب عليها، ما يعطي الأمم المتحدة حق تقسيم هذه البلاد أو التصرف بها كما تشاء. وإنما هناك مبدأ واحد وخطة معينة لا محيد عنهما. وهما مساعدة هذه البلاد على نيل استقلالها وتقرير مصيرها بنفسها.

ولذا فقرار الأمم المتحدة- كصك الانتداب- لا يقوم على أساس مبدأي أو قانوني . وقد تقدمت الوفود العربية باقتراح مآله احالة هذه المسألة إلى محكمة العدل الدولية لتبدي رأيها في صلاحية الأمم المتحدة لتقرير التقسيم، فرُدّ حتى هذا الاقتراح ، مما يدل على أن الأمم المتحدة، تحت ضغط القوى والمصالح المختلفة، لم تكن مستعدة لأن تستمع إلى صوت أعلى مرجع قانوني في العالم في هذه القضية.

نستنتج من كل ما تقدم أن الكفاح ضد الصهيونية وضد إقامة دولة يهودية في فلسطين ليس، من جهة العرب،

كفاحاً قومياً فحسب، بل هو كفاح من أجل مثل أعلى إنساني، كفاح بين الحق والقوة، بين المبدأ والمصلحة .

وقد يتساءل البعض : أليس للصهيونيين مبادىء يبنون عليها حركتهم ويكسون بها دعايتهم، فيكتسبون بواسطتها العطف والتأييد؟

أجل ! انهم يلوحون بعدة " مبادىء" ، ولكن ليس منها ما يقف أمام الحقيقة والبرهان .

يدعي الصهيونيون ان فلسطين وطن اليهود القومي لأنهم سكنوها أجيالاً طويلة في الماضي، ثم أجلوا عنها، ومن حقهم الآن أن يعودوا إليها. والواقع أن اليهود تسربوا إلى فلسطين في الأعصر القديمة، كما تسرب غيرهم من القبائل السامية إلى بلدان الهلال الخصيب، ولكنهم لم ينشئوا فيها ملكاً سياسياً موحداً إلا على عهد داود وسليمان (١٠١٧- ٩٣٧ ق. م.) ولم يدم هذا الملك سوى سنوات معدودة. حتى في هذه المدة القصيرة لم يشمل حكمهم فلسطين بكاملها بل ظل للفلسطنيين وسواهم قوة ونفوذ في البلاد.. ثم انقسم ملكهم دولتين، شمالية وجنوبية ، تهدمت الأولى سنة ٧٢٢ ق. م. والثانية سنة ٥٧٦ ق. م . وفي خلال الأعصر التالية تفرقوا وحاولوا بناء كيانات سياسية ولكنهم كانوا يخفقون المرة بعد الأخرى إلى أن تشتتوا نهائياً في القرنين الأول والثاني للمسيح. ومما يدل على أن علاقتهم بفلسطين علاقة عابرة ان الاسم الذي عرفت به هذه البلاد خلال التاريخ ليس مشتقاً منهم، بل من أعدائهم الألداء الفلسطنيين. ومن المهم ان نلاحظ أنهم حتى في أوج ملكهم لم يكونوا يقطنون المناطق التي ينزلونها الآن والتي أعطيت لهم في التقسيم : أي السهول والشواطىء، بل كانت هذه موطن الفلسطينيين ومركز نفوذهم .

ثم ان اليهود الصهيونيين الذين يهاجرون الآن إلى فلسطين لا علاقة لهم باليهود الساميين البتة. بل هم من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن الجنس السامي . وقد أثبت المؤرخون أن الكثرة المطلقة من يهود أوروبا الشرقية- وهم الذين ينصبّون على فلسطين الآن- يرجعون بنسبهم إلى

قبائل الخزر التي اعتنقت اليهودية في القرن الثامن للميلاد وانتشرت في شرقي أوروبا ووسطها، فهم يمتون إلى اليهود الذين نزلوا فلسطين قديماً بالدين فحسب، ولا يصح ان يتخذ الدين أساساً لبناء قومية أو إقامة دولة.

أما العرب في فلسطين، فلا يمثلون القبائل التي نزحت من الجزيرة في القرن السابع وحسب، إذ كان عدد هذه القبائل قليلاً، وإنما يمثلون جميع سكان فلسطين الساميين وسواهم (الفلسطينيين والكنعانيين والأموريين والآراميين إلخ.) الذين تتابعوا على فلسطين منذ فجر التاريخ، ثم تعربوا في القرن السابع وما بعده. فهم سكان البلاد الأصليون، ولم تكن إقامة اليهود في بلادهم سوى إقامة عابرة موقتة إذا قيست بتاريخ البلاد الطويل.

حتى لو سلمنا لليهود بحق تاريخي في الماضي، فأي حق يخولهم ذلك في الحاضر؟ لو صحت العلاقة التاريخية أساساً للمطالبة بالبلاد والأراضي، لحق للعرب اليوم أن يطالبوا باسبانيا، وللطليان بانكلترا، ولوجب أن يجلو جميع سكان الولايات المتحدة عنها ويعيدوها للهنود الحمر.

فمن أية وجهة نظرنا إلى المبدأ التاريخي الذي يدعيه الصهيونيون نجده لا يقوم على أساس أو يصمد لبرهان.

ويدّعي اليهود الصهيونيون ان فلسطين أرضهم، وعدهم الله بها، وتنبأ الأنبياء برجوعهم إليها حتماً. ويؤخذ بعض المسيحيين بهذه الأقوال نظراً لما ورد في بعض الكتب المقدسة من هذه التنبؤات. ولكن هؤلاء المسيحيين ينسون ان اليهود رفضوا الرسالة المسيحية بكاملها، وأنهم بتسليمهم بادعاء اليهود هذا يسلمون مهد دينهم إلى طائفة رفضته وحاربته خلال الأجيال. ثم كيف يمكننا أن نقبل ان شعباً ما من الشعوب هو شعب الله الخاص، وأن هناك عهداً بين الله تعالى وبينه، وان الله قد خصه بعلاقة أو ميزة معينة؟ ان فكرة "الشعب المختار" أقرب إلى النازية منها إلى أية فكرة أخرى ، وستلقى نفس ما لقيته تلك من سقوط وانهيار.

ولنلاحظ أن الدولة الصهيونية التي تبنى الآن في فلسطين أبعد ما تكون عن الدين، فهي دولة علمانية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، تستخدم، في ما تستخدمه، المبدأ الديني سبيلاً للدعاية، ولكنها تركز نفسها في الواقع على الأرض والصناعة والثقافة وسواها من مقومات الدولة العلمانية، بل تقوم في أساسها على الفتح والاغتصاب- وما أبعد ذلك عن الدين الصحيح!

ويحاول الصهيونيون ان يسندوا دعواهم في إقامة دولة في فلسطين بما أصاب اليهود خلال الأجيال من اضطهاد، وما تحملوه من عذاب، خصوصاً تحت الحكم النازي وفي الحرب الأخيرة. ويشيرون إلى عشرات الألوف منهم الذين لا يزالون يعيشون في مخيمات اللاجئين في المانيا وسواها .

ولو فرضنا جدلاً أنه لم يكن لليهود أي يد في هذا الاضطهاد الذي أصابهم، ولم يسببوه بشكل من الأشكال، بل كان كله من مساوىء الشعوب الأخرى، فمن المسؤول عن ذلك، وعلى حساب من يجب أن يُصلح؟ أيصح أن تكون شعوب أوروبا هي التي تضطهد اليهود وتسومهم العذاب، ثم يُفرض ثمن ذلك على العرب؟ أمن العدل أن يطلب من العرب أن يعوّضوا بأرضهم وسيادتهم عن جرائم الشعوب الغربية واستبدادها؟ أمن الحق أن يُلقى هذا العبء الثقيل على عاتق العرب، ويجازوا هذا الجزاء، مع أنهم هم الذين حموا اليهود خلال الأجيال، ومنحوهم من الحرية ويسّروا لهم من الازدهار ما لم يمنحهم إياه أو ييسره لهم أي شعب آخر في الماضي؟

إن قضية اضطهاد اليهود قضية عالمية، ولا تحل إلا بانتشار روح التسامح الديني والاجتماعي في العالم أجمع. أما اللاجئون والمشردون فتقع مسؤوليتهم على عاتق الشعوب التي اضطهدتهم. وما دام شبح النازية قد زال من أوروبا، فما الذي يمنع من إعادتهم إلى أوطانهم وتسهيل سبل عيشهم فيها؟ الحق لو أن صهيونيي أميركا أنفقوا على هؤلاء، وعلى وسائل اغاثتهم واسكانهم، جزءاً مما ينفقونه على الدعاية الصهيونية وعلى السلاح الصهيوني، لما بقي ما يدعى قضية لاجئين أو مشردين من اليهود.

وأخيراً، إن إقامة دولة يهودية في فلسطين لن تخفف في الواقع من اضطهاد اليهود في الغرب، ولن تحل مشكلتهم، بل قد تعقّد هذه المشكلة وتزيد التعصب والاضطهاد وتدفع بالشعوب الغربية، كلما نزلت بهم نازلة وشعروا أن لليهود يداً فيها، إلى أن يحملوا عليهم، ويدعوهم إلى الخروج من بلادهم والهجرة إلى فلسطين. وهذا ما ينظر إليه عقلاء اليهود في العالم بقلق شديد، ولكنهم لا يستطيعون أن يعلنوه وان يقفوا في وجه الأقلية الصهيونية المتماسكة المكافحة.

يقول الصهيونيون انهم لم يغتصبوا أرض فلسطين، بل اشتروها بمالهم، وان لهم بذلك حقاً في أن يقيموا دولة عليها. ويؤخذ البعض بهذا القول، ناسين أن فلسطين كانت في خلال السنين الخمس والعشرين الأخيرة تحت نوع من الحكم يسهل بيع الأراضي هذا، بدلاً من أن يحدده أو يمنعه. ومن هنا فائدة الاستقلال وقيام حكومة تحرص على سيادة الشعب وعلى حفظ تراثه. ترى لو أن جماعات غريبة نزلت لبنان أو أي بلد آخر مستقل وأخذت تستهوي أهله بالأثمان الباهظة فتشتري الأملاك، وتنال الامتيازات، وتؤلف الشركات لاستثمار موارد البلاد، وتسن لنفسها قوانين تحصر هذه الأملاك والموارد بها نفسها وتمنع عودتها بشكل من الأشكال إلى أصحابها الأصليين- ترى لو حدث ذلك، أتقف الحكومة مكتوفة اليدين، ولا تتخذ اجراءات لحماية الإرث الوطني والموارد القومية؟ لم تبذل الدولة المنتدبة هذه الحماية، بل بالعكس كان الوضع الاقتصادي الذي أقامته في فلسطين، والضرائب الباهظة التي فرضتها لدعم نظام مصطنع، كان ذلك مشجعاً على اضاعة ما أضيع من الإرث الوطني بدلاً من صونه وحمايته. وليس معنى هذا ان العرب غير مسؤولين مطلقاً عما حدث من هذا القبيل، وإنما معناه ان المسؤولية تقع في الدرجة الأولى على من حرم العرب استقلالهم، ووضع مقدراتهم في أيدي حكومة غريبة عنهم، وأنشأ في بلادهم وضعاً يرمي صراحة إلى هدم كيانهم واقامة كيان آخر على أنقاضه. يضاف إلى ذلك أن مجرد امتلاك أراض في بلد موحد جغرافياً لا يصح أن يتخذ أساساً لتهديم هذه الوحدة الجغرافية، وإقامة دولة غريبة فيها. بل

يجب أن يحافظ على هذه الوحدة وينشأ الكيان السياسي على أساسها بالطرق الد يمقراطية المعروفة.

***

هذه هي بعض "المبادىء" التي يبني عليها الصهيونيون دعايتهم. وهي، وأمثالها مما لا يمكننا تناوله في هذا المقال، لا تستند، كما وجدنا، على أساس صحيح أو دعامة قوية. وكلها تنهار وتتبدد أمام الحقيقة الواحدة الناصعة التي لا تقبل رداً : وهي حق العرب في تقرير مصيرهم ، وفي الاحتفاظ بميراثهم الطبيعي الذي ورثوه عن أجدادهم .

فما الذي يمنع عنهم هذا الحق؟؟

القوة والمصلحة .

أما القوة فقوة اليهود العالمية : سياسياً، ومالياً، وثقافياً .

لقد تجلّت هذه القوة في الحرب العالمية الأولى فاقتطعت من الحكومة الانكليزية وعد بلفور؟ وفرضت على أعضاء جمعية الأمم ادخاله في صك الانتداب، وظلت تحت الانتداب تعمل في انكلترا وأميركا لتأمين متابعة سياستها الاغتصابية، بالرغم من تنبه ساسة الأنكليز إلى أخطارها، وبالرغم من الثورات العربية المتتابعة. ولقد تمركزت هذه القوة في السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة. ولا يستطع أن يقدرها حق قدرها، ويتصور هول خطرها، إلا من أقام في تلك البلاد ودرس أحوالها. فكثير من الصناعات والمؤسسات المالية الأميركية هي في أيدي اليهود، وكذلك قل عن الصحف والراديو والسينما وسواها من وسائل الدعاية، علاوة على أصوات الناخبين اليهود في ولايات نيويورك والينويز واوهايو وسواها من الولايات التي لها أهميتها في انتخاب الرئاسة، خصوصاً في هذه الأيام والنزاع على أشده بين الديمقراطيين والجمهوريين، وكلاهما يسعى لاكتساب الأصوات من أية ناحية كانت.

ويكفي أن نعلم أن يهود الولايات المتحدة، جمعوا في سنة ١٩٤٦ مئة وخمسة ملايين دولار، وفي هذه السنة مئة وسبعين مليوناً ، ويعدون الآن العدة لجمع ثلاثمائة وخمسين مليوناً ، لإعانة الدولة اليهودية الجديدة- يكفي ان نعلم ذلك لنقدر خطر هذه القوة في الولايات المتحدة، وبالتالي في العالم أجمع .

هذه هي القوة: قوة اليهود. أما المصلحة: فمصلحة الأحزاب الأميركية الداخلية ، وهي ، في الواقع وكما يعلم حق العلم العارفون في أميركا، مناقضة لمصلحة أميركا العليا كدولة ذات مصالح هامة في البلاد العربية. ثم هناك مصلحة روسيا بأن تجد لنفسها منفذاً في الشرق الادنى من وراء الحصون التي تبنيها في وجهها الدول الانكلوسكسونية في اليونان وتركيا وايران. فإذا اضطربت الحال في فلسطين وتدخل مجلس الأمن بمجموعه، أو بواسطة بعض أعضائه، كان للسوفييت مجال للنفاذ إلى هذه المنطقة الحيوية من العالم، من وراء خطوط دفاع الأنكلوسكسون الأولى.

هاتان المصلحتان: الأميركية الداخلية، والسوفياتية الخارجية، اتفقتا مع المصالح الاستعمارية الأخرى ومع قوة اليهود العالمية، فأدت إلى قرار التقسيم، وإلى تضحية الحق والمبدأ.

***

ولذا أعود في ختام هذا المقال إلى ما قررته في بداءته من أن جوهر القضية الفلسطينية صراع بين الحق والمبدأ من ناحية، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية.

وسيكون هذا الصراع عنيفاً طويلاً وسيتطلب من العرب أعظم جهد وأبلغ تضحية. وإذا هم لم يبذلوا هذا المطلوب ولم يضحوا بالغالي والرخيص في هذا السبيل فقد عرضوا أنفسهم لخطر هائل يهددهم في جميع أقطارهم ومنازلهم.

فلو أقيمت دولة يهودية فعلاً في فلسطين وتركزت دولياً باعتراف الأمم المتحدة وسائر الدول بها، فلن يطول الوقت حتى يصبح لها أكبر قوة جوية في الشرق الأدنى، وحتى نرى لها-

لا سمح الله- أسطولاً تجارياً وحربياً يسيطر على هذه الشواطىء بكاملها، وجيشاً ميكانيكياً منظماً مدعوماً بالذخائر الوافرة والاختراعات الجهنمية. وستفتح هذه الدولة أبوابها لألوف المهاجرين يتدفقون عليها من أوروبا وللملايين الدولارات تنصب عليها من أميركا، فتغدو قوة بشرية ومالية يصعب حصرها في منطقتها، فتتسرب بكل شكل ممكن إلى بقية البلدان العربية، وفي حال اضطراب عالمي تشكل خطراً عظيماً على هذه البلدان. ويزيد في هذا الخطر كونها تحتل الشواطىء والمنافذ البحرية، وتقوم فى بقعة حيوية بين البلاد العربية. ففلسطين بمثابة الجسر بين هذه البلاد إذا استولت عليه ايد غريبة قطعت في ما بينه العلاقات، وفكت عرى التعاون والاتحاد.

سيكون كفاح العرب عنيفاً مديداً، وسيقويهم في كفاحهم هذا انهم يردون عن أنفسهم خطراً من أشد ما عرفوه في تاريخهم هولاً وجسامة، خطراً يهدد ذات كيانهم في مختلف بلادهم، خطراً يعرض حقهم الطبيعي واستقلالهم المكتسب، أنى كانوا، للزوال والانهيار. وسيقويهم في كفاحهم كذلك أنهم في جانب الحق والمبدأ، يجابهون القوة والمصلحة في أفظع أشكالها. وقد تتغلب القوة على الحق، والمصلحة على المبدأ، حيناً، و لكنها لن تتغلب أخيراً . فبورك البذل، وبوركت الضحايا، في هذا الجهاد الكريم المقدس!

لماذا نجاهد في فلسطين

[ألقيت من محطة الاذاعة اللبنانية مساء ٣١ (مايو) سنة ١٩٤٨]

لماذا نجاهد في فلسطين ؟ لم ترمي الشعوب العربية بالألوف من شبانها في حومة النضال؟ لم يرتفع صوت ممثلي العرب في الأمم المتحدة وسواها من المحافل الدولية دفاعاً عن موقف دولهم وشعوبهم؟ ما هي القضية التي هببنا جميعاً للكفاح في سبيلها بالقلب واليد واللسان، بل بالحياة نفسها؟

الجواب الأول على هذا السؤال هو أننا نجاهد لنرد عن أنفسنا التهجم والاعتداء، ولنحمي كياننا من هول التحكم والاستعمار. وفي الواقع ان البلاد العربية لم تجابه في تاريخها الطويل خطراً أشد من هذا الذي تتعرض له اليوم . فإن القوى التي يملكها الصهيونيون في شتى أنحاء العالم كفيلة ، إذا تسنى لها أن تستقر في فلسطين، بأن تهدد استقلال جميع البلاد العربية وتكوّن خطراً هائلاً دائماً على حياتها. وأن ما لهذه القوى من وسائل النمو والتوسع سيجعل العالم العربي أبداً تحت رحمتها، وسيشل حيويته ويصرفه عن التقدم والتطور في معارج الرقي والعمران- هذا إذا قدر له البقاء.

فنحن إنما نجاهد إذن بالدرجة الأولى دفعاً لاعتداء غادر علينا، ومحافظة على ذات وجودنا. وإذا تشدق المتشدقون في الأمم المتحدة أو سواها بأن عملنا هذا هو عمل اعتدائي، فإنهم إنما يقلبون الوقائع رأسا على عقب، ويجرمون في نظر الحق والتاريخ، ويسجلون على أنفسهم، بأنهم وحلفاءهم هم المعتدون! ولا فرق في نظر التاريخ ما إذا كان هؤلاء المتشدقون يمثلون دولاً كبرى أو صغرى، فاللعنة ستلحق بهم أياً كانوا، وسينالون يوماً جزاء أعمالهم، لأن الشر كفيل بأن ينقلب على صاحبه والجرم بأن يعود فينصبّ على مقترفه.

***

على أن لجهادنا الحاضر معنى أهم من هذا الذي ذكرنا، وقيمة تتعدى حدودنا إلى العالم أجمع وتمتد من الحاضر إلى آفاق المستقبل البعيدة. ذلك أننا لا ندافع عن حقنا فحسب، بل عن مبادئ تهم كل شعب من شعوب الأرض وتتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية، ومغزى تاريخياً . وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الإنساني خلال العصور في سبيل الحفاظ على القيم الباقية والحريات البشرية الأصلية .

ومن حقنا نحن العرب، بل من واجبنا، أن نكشف عن هذا المعنى الأوسع الأعمق من معاني جهادنا، لنتبين، ولنبين للعالم، خطورة هذا الجهاد، ولنضع أنفسنا حيث يجب، في الموكب الإنساني المناضل عن الحق والمبدأ. وهو

الموكب الوحيد الذي يسبغ على الحياة البشرية معناها ويخلق أثراً ايجابياً في التاريخ. إذ ليس التاريخ الحقيقي سوى قيم إنسانية تكتسب، ومواقف أدبية تتخذ، ومبادىء توضح وتحقق .

المبدأ الأول الذي ينطوي عليه جهادنا هو حق كل شعب في الأرض التي يعيش عليها، والتي ورثها من آبائه وأجداده- حقه في أن يستغلها ويقيم فيها النظام الذي يختاره، شرط أن لا يكون في ذلك تعدّ على سواه. هذا الحق، حق تقرير المصير، مبدأ إنساني أصيل ما زالت البشرية منذ فجرها الأول تسعى لتحقيقه، وما زال القادة والمصلحون ينادون به، والجماهير الشعبية تضحي بشيبها وشبابها في سبيله. فإذا قام العرب اليوم يكافحون من أجله، ضد الاعتداء الصهيوني، وإذا ظلوا يهبّون ضد كل محاولة أو مناورة في الحاضر أو المستقبل لتهديمه أو للتعدي الخفي باسمه وتحت لوائه، فإنهم لا يعملون لصون كيانهم فحسب، بل لتدعيم ركن من أركان الحياة البشرية السليمة، والتقدم العالمي الصحيح .

وعلى الأمم الكبرى التي كان وما يزال قادتها يلوّحون بهذا المبدأ كلما تأزمت أحوال العالم واحتاجوا إلى معونة الشعوب الصغيرة- على هذه الأمم أن تتبين اليوم أي موقف تقف منه، في الصراع القائم في فلسطين بينه وبين قوة المال والسياسة والنفوذ. لقد قال أحد قادة هذه الأمم في الحرب الماضية : "السلام وحدة لا تتجزأ". أجل وكذلك هو الحق، والحرية، والمبادىء وحدات لا تتجزأ: لا معنى لها إذا طبقت على شعب دون آخر، وفي صقع من أصقاع العالم دون سواه، أو إذا نودي بها خداعاً وتغريراً ولم تتسرب إلى صميم الفكر والعمل. ومهما كان موقف الأمم الأخرى، فالعرب يعلمون أين يقفون في هذا الصراع. وفي فوزهم فوز لمبدأ أساسي من مبادىء الاجتماع الإنساني، وغنم للبشرية جمعاء.

***

والمبدأ الثاني الذي يتضمنه الجهاد العربي في فلسطين هو التسامح الطائفي . فلقد صور الصهيونيون للعالم

كذباً وخداعاً ان في إقامة دولة صهيونية في فلسطين حلاً للقضية اليهودية العالمية. وفي الواقع ان الدولة المزعومة لا تحل هذه القضية الكبرى، بل تزيدها تعقيداً، وتهيب بالدول إلى الشك بولاء رعاياها اليهود، وإلى اعتبارهم أجانب عنها والضغط عليهم بشتى الطرق لاجلائهم إلى تلك الدولة الخادعة المخدوعة. بهذا سيبقى موقف اليهود متأرجحاً بين ولاءين، وسيظلون يُنظر إليهم شزراً، بل سيزداد موقفهم حراجة. فقد حاولوا محاولة خاطئة : حاولوا بناء قومية على أساس دين واعتقاد، خلافاً لما أثبته التاريخ وقضت به سنن السياسة والاجتماع.

لا! إن القضية اليهودية العالمية، لا تحّل إلا على أساس نشر التسامح الطائفي، وتدعيم مبادىء الكرامة الإنسانية، بالجهاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي . انها مرتبطة بالكفاح الشعبي ضد الاستعمار الخارجي والداخلي، وضد كل استئثار ينال من حرية الفرد أو الجماعة. هي مشكلة عالمية يتوقف تذليلها على استعداد اليهود أنفسهم للانصهار في الجسم الإنساني، وعلى انتصار مبادىء حرية الفكر والعقيدة: وهي مبادىء لا تمس اليهود فحسب، بل كل فرد أو جماعة أو طائفة.

والعرب في دفاعهم عن التسامح الطائفي وحرية العقيدة إنما يجرون على تقليدهم الماضي. فقد بذلوا لليهود خلال التاريخ من الحرية ما لم يبذله لهم أي شعب آخر. وبلغ أبناء هذه الطائفة في عهود النفوذ العربي من الحكم وعلو الشأن ما لم يبلغوه في أية دولة أخرى . ولا يزال العرب يصرحون بانهم مستعدون للعيش واليهود في ظل حكم ديمقراطي واحد ينال اليهود فيه من الحقوق ما يؤهلهم له عددهم، ويتمتعون بنفس الحريات والواجبات التي يتمتع بها العرب، مما لم يتحقق بعد فعلاً في كثير من دول العالم.

على هذا الشكل من تحقيق الحريات الديمقراطية تحل القضية اليهودية. والعرب في جهادهم لمنع إقامة دولة صهيونية في فلسطين، إنما يخدمون هذه الحريات نفسها بتوجيههم القضية إلى حلها الصحيح، ويكشفون القناع عن رياء الدول التي تنادي بالدفاع عن اليهود وتغلق

بالوقت نفسه دونهم أبوابها. ان الجهاد العربي في فلسطين جهاد ضد هذا الباطل وأمثاله، وكفاح من أجل معالجة قضية طائفية على أسس سليمة ، ولتحقيق حريات أساسية لا يزال المدافعون عن الصهيونيين أبعد الناس عن تحقيقها، بل هم بدفاعهم هذا يعملون، جهلاً أو عمداً ، على اضعافها وتقويضها.

والمبدأ الأخير والأعم الذي ينطوي عليه الجهاد العربي في فلسطين هو تغليب المبادىء على المصلحة في التنظيم العالمي . ان العالم ليشهد اليوم أسوأ مهزلة عرفها التاريخ. يشهد منظمة أممية تضم أكثر دول العالم، عاجزة عن أن تحل مشكلة واحدة من المشاكل الدولية. ها ان الأمم المتحدة، بهيئتها العامة ومجلس الأمن ومجلس الوصاية، لم تستطع بعد أن تحسم خلافاً واحداً من الخلافات التي تصدّع جبهة البشرية وتنذر بحرب جديدة هائلة : في كوريا والصين وأندونيسيا والهند وايران وفلسطين واليونان والمانيا، بل في كل بقعة حساسة من بقاع الأرض. وما ذلك إلا لأن الدول الأعضاء لا تزال تغلب المصلحة على المبدأ، والدول الكبرى خاصة لا تزال تسيّرها شهوة التحكم والاستئثار لا الرغبة في تحقيق القيم الصحيحة في حياة الشعوب وعلاقاتها بعضها ببعض . والعرب في دفاعهم الحاضر إنما يقفون في وجه المصلحة والشهوة، فلا يخدمون أنفسهم فحسب، بل يخدمون العالم أجمع ويقومون بنصيبهم في تنبيه البشرية إلى الطريق الوحيدة التي تؤمن سلامتها- طريق المبادىء الأساسية الثابتة، لا المصلحة المترجرجة والشهوة الغاصبة.

***

ليس في بلاد العالم بلد له من القيمة العالمية ما لفلسطين. ولم تحتل فلسطين مكانتها في التاريخ بميزاتها الطبيعية ومواردها المادية، وإنما بالمعاني الإنسانية والقيم الرفيعة والمبادىء الأصيلة التي شعّت منها على العالم بأجمعه. والجهاد العربي اليوم لا يتخذ معناه الصحيح إلا من ضمن هذا الإطار وعلى ضوء هذه الحقيقة. انه جهاد عربي في سبيل الحفاظ على كيان العرب واستقلالهم، ولكنه إلى جانب هذا- بل أقول قبل هذا-

جهاد إنساني عالمي أرجو أن يظل يتابع تقليد فلسطين الايجابي في بث القيم الصحيحة، والدفاع عن المبادىء والحريات والمسؤوليات الإنسانية الأصيلة .

*****